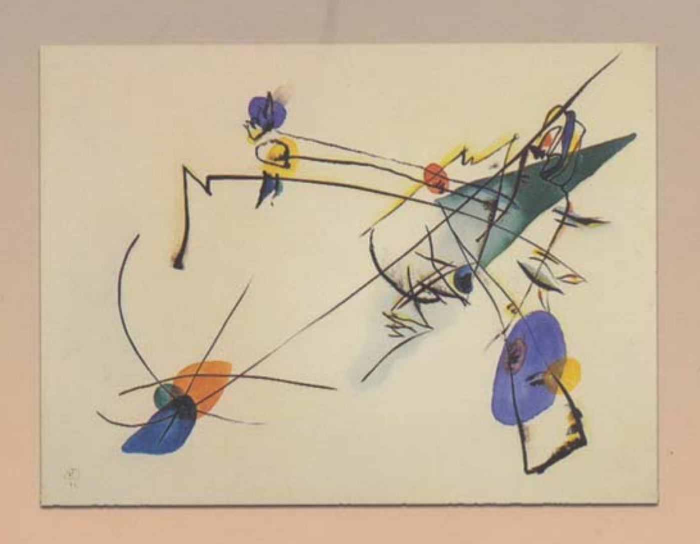


سيمون دوبوفوار

سوء تفاهم في موسكو



ترجمة : لينا بدر



سيمون دوبوفوار

سوء تفاهم في موسكو

ترجمة: لينا بدر

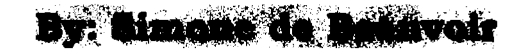
دار الحوار

سوء تفاهم في موسكو

الكتاب: سوء تفاهم في موسكو
المؤلف: سيمون دوبوفوار
المترجم: لينا بدر
الطبعة الأولى:2015/3
الإخراج الضوئي: بتول سامر ديبه

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للكتاب الفرنسي:

Malentendu à Moscou



❁❁❁

ISBN: 978 – 9933 – 523 – 20 -6

❁❁❁

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
ص. ب 1018 اللاذقية، سورية، هاتف وفاكس: 33 422 41 963+
البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

كلمة الناشر الفرنسي

كتب سيمون دوبوفوار "سوء تفاهم في موسكو" ما بين 1966-1967، وكان من المفترض أن تشكل جزءا من مجموعة "المرأة المحطمة" 1968. وعلى الرغم من مزاياها الواضحة إلا أن الكاتبة استبعدتها لتستبدلها بقصة "سن الرشد". وقد نشرت (سوء تفاهم في موسكو) للمرة الأولى في العام 1992، في مجلة "Roman 20-50"

تروي القصة أزمة الزوجية والهوية التي يعيشها زوجان (أندريه ونيكول) على أعتاب الشيخوخة، - وهما أستاذان متقاعدان - أثناء رحلة في موسكو. ثمة يلتقيان بماشا، ابنة أندريه من زواجه الأول. وقد جاء أسلوب السرد الذي اختارته الكاتبة موائماً بشكل ممتاز للموضوع الذي تمت معالجته. حيث تعرض سيمون دو بوفوار، ضمن مشاهد متعاقبة (أربعة وعشرون بمجملها، موزعة بالتساوي) وبإيقاع سريع، وجهة نظر كلٍّ من نيكول وأندريه. ويشغل إذ ذاك القارئ هنا موقع المحظي للوقوف على مسافة واحدة من الشريكين، حيث يتعلق كل منهما للحظات في تأويلاته المغلوطة وخيباته التي لم يبح بها، وأضغانه المتباينة. وتتيح لها هذه التقنية، إضافة إلى ذلك، وبشكل متوازٍ، توضيح وجهة النظر الذكورية، وكذلك الأنثوية، فيٍ اختلافاتهما (اهتمامات أندريه سياسية أكثر، أما اهتمامات نيكول فتتمحور حول المشاعر)، كما في تشابههما. وكانت الكاتبة قد استخدمت هذا التبئير المضاعف في روايات سابقة (دم الآخرين، وموظفو الصين الشعبية)، ولكن لم تكن ولا مرة بهذه الحدة وهذه التكاملية.

كما يشير العنوان، تربط الرواية وبشدة ما بين القصة الفردية والتاريخ الجمعي، حيث يبدأ سوء التفاهم الزوجي بمناسبة رحلة تقود إلى خيبة سياسية. وبهذا تقدم شهادة (نقدية) في غاية الإثارة عن الاتحاد السوفييتي وسط سنوات الستينيات (من القرن العشرين). تستوحي سيمون دو بوفوار هذه القصة من إقامتها المنتظمة في الاتحاد السوفييتي هي وجان بول سارتر المدعوان من قبل اتحاد الكتاب ما بين عامي 1962-1966 (كان يلتقي بها سارتر هناك بصديقته الروسية لينا زونينا التي تستعير ماشا بعض ملامحها). هكذا، ومن خلال التجربة الواقعية لأبطال القصة ذوي المشاعر المتوفزة نقيس تحولات البلاد، ونعيش الآثار العديدة التي تسببها السخافة البيروقراطية. إن الوضع الثقافي للاتحاد السوفييتي والسياسة الخارجية التي كانت يسيطر عليها آنذاك الضغط الصيني السوفييتي، يثيران نقاشات ما بين ماشا ووالدها، الخائب في النهاية من عدم العثور على اشتراكية مثالية في موسكو التي يعيد اكتشافها. إن نقد النظام السوفييتي الذي أثارته الكاتبة في عملها (في النهاية، بعد كل اعتبار)، والذي كتبته في العام 1971 بعد اجتياح تشيكوسلوفاكيا، كان

أكثر حدة، وقد كرّس حيزاً أكبر لمشكلة الحريات. ولكن تبقى بما هي عليه هذه اللوحة المفصّلة عن الواقع في الاتحاد السوفييتي وثيقة قيمة.

متجاوزة أزمة الزوجين، تتناول سيمون دو بوفوار موضوعات أكثر عمومية، إذ تعرض الشخصيات النسائية مظاهر مختلفة لوضع النساء: نيكول، على الرغم من رغبتها بالتحرر ومن معارك شبابها، وهي منهكة من حياتها العائلية، وتأسف لعدم إنجاز طموحاتها. كما تجسد إيرين خطيبة الابن الجيلَ الجديد الذي يدّعي التوفيق بين كل الأشياء ولا يتعمق بشيء. وينساب من ماشا الشعور بالراحة والاستقلالية بسبب المساواة بين الجنسين في الإتحاد السوفييتي. إن مشكلة التواصل إلى الآخر تسري على طول القصة، ومع ذلك هي تستقصي الآثار المريرة للتقدم في السن: وهن الجسم، التوقف عن الحياة الجنسية، التخلي عن المشاريع، ضياع الآمال. ويقود إمعان التفكير في السن إلى التساؤل حول الزمن (إشارة إلى مارسيل بروست). ويضفي اضطراب الشخصيات غالباً على كل هذه التأملات طابعاً

شعرياً مؤثراً بشكل خاص. والمغالاة في (سوء التفاهم) تؤدي إلى الغوص أكثر فأكثر في الماضي والبلوغ في النهاية إلى سؤال عن المعنى نفسه للحياة الإنسانية:"صعقها القلق، القلق من الوجود، والذي لا يمكن التغاضي عنه، أكثر بكثير من الخوف من الموت." وتتداخل كل هذه الإشكاليات وهذه الموضوعات بشكل متلاحم وضروري. وتقف ماشا الدليلة السياحي والمترجمة والتي أحدث حضورها أزمة ووعياً، في وسط هذه اللوحة.

في قصة "سن الرشد" التي حلّت محل "سوء تفاهم في موسكو"، في مجموعة (المرأة المحطمة) تستعيد سيمون دو بوفوار وضع الزوجين المتقدمين في السن اللذين يواجهان سوء تفاهم، فتكرر مقاطع عدة من القصة الأولى متبنية إياها في النص. لكنها تستبعد منها كل البعد السوفييتي، وتتبنى هذه المرة وبشكل حصري وجهة نظر الشخصية النسائية المتأزمة. هذه الخيارات سمحت لها بإدراج القصة الجديدة بسهولة أكبر ضمن مجموعة

"المـرأة المحطمـة". ولكـن بـالعودة إلـى الـوراء، فـإن روعـة "سـوء تفـاهم فـي موسـكو" تفـرض نفسها وتدعو لنشرها كنص مستقل.

سوء تفاهم في موسكو

رفعت بصرها عن كتابها. يا للضجر! كل هذه اللازمات المملّة عن عدم التواصل! لو أننا نتمسك بالتواصل فسنفلح بذلك إلى حد ما. ليس مع كل الناس، ليكن، مع شخصين أو ثلاثة.

كان أندريه الجالس في المقعد المجاور يقرأ كتاباً ممنوعاً. كانت تخفي عنه تقلبات مزاجها، حسراتها وهمومها الصغيرة، لاشك أنه هو أيضاً لديه أسراره الصغيرة، لكن بالإجمال لم يكونا يجهلان شيئاً عن بعضهما البعض. ألقت نظرة

عبر نافذة الطائرة. على مد البصر، غابات سوداء وبرارٍ منيرة. كم مرة فرّا معاً، في القطار، في الطائرة، في السفينة، يجلسان متحاذيين وكل منهما بيده كتاب؟ مراراً أيضاً سوف يذهبان معاً، بصمت، فوق البحر والبرّ والجوّ. كان لهذه اللحظة عذوبة ذكرى وفرح ووعد. هل هما في الثلاثين أم في الستين؟ لقد شابَ شعر أندريه مبكراً: في الماضي كان يبدو هذا الثلج الذي يعلو نضارة بشرته النضرة جذابا للنساء. ما يزال جذاباً. قست البشرة وتشققت، جلد مسن، لكن ابتسامة الثغر والعينين احتفظت بضيائها. على الرغم من تكذيب ألبوم الصور، لكن صورته الفتية كانت تنطوي تحت وجهه اليوم. لم تكن نيكول تعرف فيه عمراً. لأنه يبدو، بلا ريب، جاهلاً بأنه تقدم به العمر. هو الذي كان يحب جداً في الماضي أن يركض ويسبح ويتسلق ويتطلع إلى نفسه في المرايا، كان يحمل سنواته الستين دون هم. حياة طويلة مع الضحكات والدموع والغضب والعناقات والبوح والصمت

والانـدفاعات، كـأن الـزمن لـم يمـر. مـا يـزال المستقبل ممتداً إلى اللانـهاية.

- شكراً.

أخـذت نيكـول قطعـة سـكاكر مـن السـلة، فزعة من بدانـة المضيفة ونظراتهـا القاسية. منذ ثـلاث سـنوات، فزعـت مـن نـادلات المطـاعم وخادمـات غـرف الفنـادق. لايفـرض علـيهن اللطـف. شـعور عـارم بـواجبهن لايمكـن إلا استحسانه. ولكن يشعر المرء حيـالهن بـالذنب أو بالاتـهام على أقل تقدير.

- وصلنا، قالت.

بخـوف متحفظ، كانـت تنظـر إلـى الأرض التي تقترب. مستقبل لانـهائي قد يتحطم بين لحظة وأخـرى. كانـت تعـرف جيـداً هـذه الانفعـالات المفاجئـة، مـن الأمـان الخـالي مـن الهمـوم إلـى انـدفاعات الخـوف. انـدلاع الحـرب الثالثـة، إصـابة أندريه بسرطان الرئة ــ علبتا سجائر فـي النهـار، هذا كثير، كثير جداً، أو أن تتحطم الطـائرة علـى

الأرض. ستكون طريقة جيدة للموت: معاً ودون قصص، ولكن ليس مبكراً جداً، ليس الآن. "نجونا، مرة أخرى"، قالت لنفسها حين ارتطمت العجلات بعنف قليلاً بالمدرج. ارتدى المسافرون معاطفهم، جمعوا صررهم. مراوحة الانتظار. مراوحة طويلة.

- هل تشمين رائحة أشجار البتولة؟

قال أندريه.

كان الطقس منعشاً، بارداً تقريباً. ست عشرة درجة كما أعلنت المضيفة. كم كانت باريس قريبة وبعيدة، على بعد ثلاث ساعات ونصف، باريس التي تنبعث منها هذا الصباح رائحة الإسفلت والعاصفة، تسحقها بشدة حرارة الصيف الأولى. كم كان فيليب قريباً وبعيداً... أقلّتهم حافلة - عبر مطار أكبر بكثير من ذلك الذي نزلوا فيه في العام 1963- إلى مبنى زجاجي فطري الشكل يدققون فيه جوازات السفر. عند المخرج، كانت ماشا بانتظارهما. دهشت من جديد من رؤية وجهها الذي تتجانس فيه بانسجام ملامح كلير

وأندريه المتغايرة. نحيلة، أنيقة، تسريحتها بالشعر المستعار فقط كانت تدل على موسكوفيتها.

- هل كانت الرحلة جيدة؟ هل أنتما على ما يرام؟ هل أنت بخير؟

كانت تخاطب والدها بالضمير المفرد ونيكول بضمير الجمع. بدا ذلك طبيعياً وفي الوقت ذاته غريباً.

- أعطني هذه الحقيبة.

كان ذلك طبيعياً أيضاً. عندما يقوم رجل بحمل حقائبك، ذلك لأنك سيدة، أما أن تقوم سيدة بهذا، فذلك لأنها أصغر منك سناً، وأنت تشعرين بأنك عجوز.

- أعطياني بطاقات الحقائب واجلسا هناك.

قالت ماشا بلهجة آمرة. أطاعت نيكول. مسنّة. بالقرب من أندريه كانت تنسى ذلك غالباً، لكن ألف خدش كان آتياً إليها ليذكرها. "امرأة شابة جميلة"، فكّرت وهي ترى ماشا. تذكرت كيف ابتسمت وهي في الثلاثين من عمرها حين

قال حموها الكلمات نفسها عن امرأة في الأربعين. بالنسبة إليها الآن، كان يبدو معظم الناس يافعين. مسنّة، كان يصعب عليها التسليم بذلك (أحد الأشياء النادرة التي لم تبح بها لأندريه: ذلك الخبل اليائس). "مع ذلك، هناك مزايا"، قالت لنفسها. التقاعد يوحي بأنك (على حده) إلى حد ما، ولكن من الممتع أن تأخذ إجازتك متى أردت، بتحديدٍ أكبر، أن تكون في إجازة طوال الوقت. في قاعات الدرس الحارة، كان زملاؤها قد بدؤوا الحلم بالرحيل وهي قد رحلت. بحثت عيناها عن أندريه الواقف إلى جانب ماشا وسط هذا الزحام. في باريس كان يستسلم لاحتكار كثير من الناس له. معتقلون سياسيون إسبانيون، موقوفون برتغاليون، إسرائيليون مضطهدون، متمردون كونغوليون، كاميرونيون، رجال مقاومة من الحرب العالمية الثانية، فنزويليون، بيروفيون، كولومبيون، ونسيت سواهم لقد كان مستعداً على الدوام لمؤازرتهم على قدر استطاعته. اجتماعات، مظاهرات، لقاءات، مناشير، مفوضيات. كان يقبل كل المهام. كان منتمياً إلى العديد من التجمعات

والهيئات. هنا، لا أحد سيلتمس منه شيئاً. لا يعرفان سوى ماشا. لاشيء يفعلانه هنا سوى رؤية الأشياء معاً. كانت تحب اكتشاف بعض الأشياء معه، وأن يستعيد الزمنُ الساكنُ من جرّاء رتابة سعادتهما الطويلة تجدده المتدفق. نهضت. أرادت أن تكون منذ الآن في الشوارع تحت جدران الكرملن. كانت قد نسيت كم يمكن أن يطول الانتظار في هذه البلاد.

- هل وصلت هذه الحقائب؟

- سوف تصل في النهاية.

قال أندريه.

ثلاث ساعات ونصف، فكّر. كم كانت موسكو قريبة، مع أنها بعيدة جداً! على بعد ثلاث ساعات ونصف، ولا أرى ماشا إلا نادراً جداً. (ولكن هناك عقبات كثيرة، أولها كلفة الرحلة).

- ثلاث سنوات مدة طويلة، قال، لا شك أنك ترينني عجوزاً.

- بتاتاً، أنت لم تتغير.

- أنتِ ازددت جمالاً.

كان ينظر إليها بافتتان. عندما تظن أن لا شيء يمكن أن يحدث لك بعد الآن، وتكون قد أخذت نصيبك ولم يكن ذلك بالأمر السهل، هاهي عاطفة جديدة تماماً تنير حياتك. لم يعر اهتماماً كثيراً للفتاة المذعورة – كان اسمها آنذاك ماريا- التي أحضرتها كلير لساعات قليلة من اليابان، من البرازيل، من موسكو. لقد ظلّت غريبة بالنسبة إليه تلك المرأة الشابة القادمة إلى باريس بعد الحرب كي تعرّفه بزوجها. ولكن في الرحلة الثانية لماشا في العام 1960، حدث شيء ما بينهما. لم يفهم تماماً لماذا تعلقت به بشدة، لكن ذلك حرّك قلبه. بقي الحب الذي كانت تحمله له نيكول فطناً جياشاً، مرحاً، لكنهما كانا معتادين جداً أحدهما على الآخر، إلى درجة استطاع أندريه معها أن يحرّك فيها هذا المرح الممزوج بالدهشة الذي يراه في تلك اللحظة يغيّر وجه ماشا القاسي إلى حد ما.

- هل وصلت هذه الحقائب؟

• سألت نيكول.

- سوف تصل في النهاية.

لماذا فقدان الصبر؟ هنا الوقت يوزع عليهما بوفرة. في باريس، كان يقتل أندريه مضي الساعات متنازعاً بين المواعيد، بالأخص بعد التقاعد. قلّل من شأن امتداد أوقات فراغه، بدافع الفضول أو اللامبالاة، انساق إلى جملة التزامات لم يتمكن من التخلص منها. كان مزمعاً على الهروب منها لمدة شهر، كي يتمكن من العيش بذلك الاستهتار الذي يحبه جداً، يحبه كثيراً، فمنه تولدت كل متاعبه.

- ها هي حقائبنا، قال.

وضعوها داخل سيارة ماشا وجلست هي وراء المقود. راحت تقود ببطء مثل كل الناس هنا. كانت تنبعث من الطريق رائحة الخضرة المنعشة، تنجرف فوق نهر موسكوفا الآن تشكيلة من جذوع الأشجار. شعر أندريه بهذا الانفعال يستيقظ في داخله، والذي لولاه لما كان للحياة أي

طعم. ها قد بدأت مغامرة تثير حماسه وتخيفه، مغامرة الاكتشاف. لم يكن يبالي قط لا بالنجاح ولا بأن يكون شخصاً مرموقاً. (لولا تفاني أمه بإصرار كي يتابع تعليمه، لاكتفى حقاً بمثل حال والديه: مدرسان تحت شمس بروفانس). كان يخال أن حقيقة حياته وذاته لا تنتمي إليه. كانت متناثرة وعلى نحو غامض على الأرض كلها، وكان يلزم لإدراكها مساءلة العصور والأماكن، لهذا السبب كان يحب التاريخ والسفر. ولكن بما أنه كان يدرس بصفاء الماضي المحرف في الكتب، فإن مقاربة بلد مجهول – مقتحماً فوران الحياة فيه ليعرف ما أمكنه عنه- كانت تشعره بالدوار. كان هذا البلد يعنيه أكثر من أي بلد آخر. كان قد نشأ على ثقافة لينين، أمه بسنّ الثالثة والثمانين ولا تزال تناضل في صفوف الحزب الشيوعي، هو لم ينتم إليه، ولكن من خلال اضطراب المشاعر ما بين الأمل واليأس، ظن دائماً أن الإتحاد السوفييتي يمتلك مفاتيح المستقبل، وبالتالي مفاتيح هذا العصر، وله قدره الخاص. مع ذلك، حتى في السنوات الستالينية السوداء، لم

يشعر أندريه قط بأنه أساء فهم الاتحاد السوفياتي. هل ستنوره إقامته هنا؟ في العام 1963 كانا قد سافرا كسيّاح إلى القرم وسوتشي، بشكل سطحي. هذه المرة، سوف يطرح الأسئلة، سيقرأ الصحف، ويختلط بالجموع.

سلكت السيارة شارع غوركي. هاهم الناس، المخازن، هل سيفلح بالشعور بأنه في وطنه؟ ألقت به هذه الفكرة في الهلع. كان علي أن أدرس الروسية بجدية أكثر!" قال لنفسه. هذا أيضاً من الأشياء التي وعد نفسه بالقيام بها ولم يفعل. لم يتجاوز الدرس السادس من سلسلة الأسيميل[1]. نيكول على حق حين تنعته بالعجوز الكسول. للمطالعة والثرثرة والنزهة، كان دائماً على أهبة الاستعداد. لكن الأعمال الصعبة – تعلم المفردات، رفع البطاقات - كان يتأفف منها. لم يكن عليه إذاً أن يولي هذا العالم اهتمامه إلى هذه الدرجة، بجدّية كبيرة وبكثير من الخفة. "هذا تناقضي" قال لنفسه بسرور. (أبهجه هذا التعبير من رفيق ماركسي إيطالي مقتنع، وكان يقمع زوجته). في الحقيقة، لم يكن يشعر بالسوء بتاتاً في قرارة نفسه.

---

[1] الأسيميل: سلسلة كتب لتعلم اللغات. م.

محطـــة القطـــار، بلونهـــا الأخضـــر الاستفزازي: (الأخضر الموسكوفي. "إذا كنت لا تحب هذا فمعناه أنك لا تحب موسكو." كان يقول أندريه قبل ثلاث سنوات). شارع غوركي. فندق بكـين: كتلـة مركبـة متواضـعة فيمـا لـو قارنّـاه بالمبـاني العملاقـة والمفرطـة الزخرفـة المستوحاة علـى زعمهـم مـن الكـرملن، كانـت قـد أحاطـت المدينـة. كانـت نيكـول تتـذكر كـل شـيء. مـا إن خرجـت مـن السـيارة حتـى تعرفـت علـى رائحـة موسكو، رائحـة الوقـود الأقـوى بكثيـر ممـا كانـت عليـه فـي العـام 1963، ذلـك لأن السـيارات دون شـك أضـحت أكثـر بكثيـر. بـالأخص الشـاحنات والشـاحنات الصـغيرة. هل مضـت ثلاث سنوات؟ قالـت لنفسـها وهـي تـدخل القاعـة الكبيـرة العاريـة. (كان يغطي بسطة بائعة الصحف شرشف ضارب إلـى الرمـادي، عنـد بـاب المطعـم – ذي الطـابع الصـيني المبـالغ بـه - كـان النـاس يقفون بالـدور). بأية سرعة مضت؟ شيء محزن. كم سنة بقي لها لتعيش؟ لا شـيء تغير هنـا، بالنسبة للغربـاء فقـط. كانت ما شا قد أعلمتهما بـأن أسـعار الغرف التـي

كانت منخفضة بشكل زهيد في الماضي، ازدادت ثلاثة أضعاف. سلّمتهم مراقبة الطابق الثالث مفتاحاً. أحسّت نيكول بنظرتها فوق عنقها على طول الممر الطويل. هناك ستائر لنوافذ الغرفة. كان ذلك حظاً جيداً. غالباً في الفنادق، تكون النوافذ عارية. (عند ماشا لايوجد ستائر حقيقية، غلالة رقيقة فقط. تعتاد على ذلك، كانت تقول. لا بل أن العتمة المطبقة كانت سوف تمنعها من النوم.) كانت الجادة الكبرى في الأسفل قد تم إنجازها، والسيارات تندفع داخل نفق تحت ساحة ماياكوسكي. كان للحشد فوق الرصيف ألوان الصيف. تتنزه النساء بأثواب مزهرة عارية الأذرع والسيقان. هذا شهر حزيران، وهن يتخيلن أن الطقس حار.

- هذه الأشياء لكِ.

قالت نيكول لماشا عندما بدأت تفتح حقيبتها. روايات جديدة، من سلسلة des pléiadas ، بعض الأسطوانات، وكذلك سترات من الصوف المَحاك وقمصان. كانت ماشا تحب التزين. جسّت بفرح الصوف والحرير وراحت تقارن الألوان.

ذهبت نيكول إلى الحمام. ضربة حظ أخرى. كان الصنبوران ورشاش مياه المرحاض كلها تعمل. غيّرت ثوبها وأعادت زينة وجهها.

- يا له من ثوب جميل!

قالت ماشا.

- أحبه كثيراً.

في سن الخمسين كانت دائماً تبدو لها زينتها إما كئيبة جداً أو مرحة جداً. الآن صارت تعرف ما المسموح لها وما الممنوع. تلك العلاقة الحميمة التي كانت في السابق بينها وبين ملابسها لم يعد لها وجود. علّقت بذلتها داخل الخزانة، تلك البذلة التي ارتدتها لسنتين تبدو لها الآن شيئاً لا معنى له، غير شخصي، لا تجد فيها أي شيء منها. في هذه الأثناء كانت ماشا تبتسم في المرآة، ليس للقميص الجميل الذي ارتدته لتوّها، إنما لصورتها المفاجئة والجذابة. نعم، أتذكر ذلك. قالت نيكول لنفسها.

- حجزت طاولة في براغا.

كانـت قـد تـذكرت أنـه مطعـم نيكـول المفضل. حسن، التفات شديد وذاكرة دقيقة جداً، مثل ذاكرتي. كانت نيكول تتفهم العاطفة التي لدى أندريه تجاهها. لشدة رغبته دائما بابنة، كان يتحامل على فيليب قليلاً لأنه صبي.

خلال عشر دقائق، كانت ماشا تقودهما إلى براغا. سلموا معاطفهم لمودع الألبسة، عرفتُ إلزامي. يمنع الدخول إلى مطعم مع معطف على الظهر أو على الساعد. جلسوا داخل قاعة طعام مبلطة، مليئة بأشجار النخيل والنباتات الخضراء. كان يغطي أحد الجدران منظر طبيعي عريض ضارب إلى اللون البنفسجي.

- كم كأساً من الفودكا؟ - سألت ماشا - أنا التي أقود لن أشرب.

- اطلبي ثلاثمائة غرام إذاً، قال أندريه.

بحثت عيناه عن نظرة نيكول.

- لأول ليلة؟

- لأول ليلة، ليكن. قالت مبتسمة.

بالنسبة إلى الكحول كانت تفلح بجعله يخفف.

- لأول ليلة سأتخلى عن حميتي – قالت- سأتناول الكافيار وحساء رقائق الطيور.

- هل تتبعين حمية؟

- نعم، منذ ستة أشهر، أزداد سمنة.

ربما كانت تأكل أكثر قبل أن تتقاعد، في كل الأحوال، كانت تجهد نفسها أقل. قال لها فيليب ذات يوم:"ولكن ماهذا، أنت تتكوّرين!" منذ ذلك الحين لم يلاحظ كثيراً أنها نحلت. وهذه السنة بالتحديد، كان حديث باريس: الاحتفاظ بالرشاقة واستعادتها: حريرات مخفضة، هيدروكربونات، أدوية عجائبية.

- قوامك جيد جداً، قالت ماشا.

- فقدت خمسة كيلوغرامات وأحرص على عدم استعادتها. أزن نفسي كل يوم.

لم تكن تتخيل في الماضي أنها ستنشغل قط بوزنها. وها هي كلما كانت تتعرف على جسدها أقل، يزداد شعورها بضرورة الاهتمام

به. كان جسدها مسؤوليتها. تعتني به بتفان متعب، مثل صديق قديم، مشوه بعض الشيء، معوّق قليلاً، لكنه بحاجة إليها.

- إذاً فيليب سوف يتزوج - قالت ماشا- كيف هي خطيبته؟

- جميلة وذكية، قال أندريه.

- لا تعجبني إطلاقاً، قالت نيكول.

بدأت ماشا تضحك:

- كيف تقولين هذا! لم أجد قط كنّة تعجب حماتها.

- إنها من نوع "المرأة الشاملة"- قالت نيكول- ما أكثرهن في باريس! لديهن مهنة غير محددة، يدّعين الأناقة وممارسة الرياضة، والتماسك بشكل كامل، وتربية أولادهن بشكل رائع. يردن أن يثبتن لأنفسهن أنهن قادرات على النجاح على جميع المستويات. وفي الحقيقة، هن مشتتات، لا يصلن إلى شيء. هذا النوع من النساء يجمّد الدم في عروقي.

- أنت ظالمة قليلاً، قال أندريه.

- ربما.

من جديد سألت نفسها: لماذا إيرين؟ كنت أظن أنه حين سيتزوج...كنت أظن أنه لن يتزوج، وسيبقى الصبي الصغير الذي قال لي، مثل كل الصبيان:"عندما أكبر، سوف أتزوجك." وذات مساء قال:"سأعلمك بخبر!" بهيئة مستثارة قليلاً، مثل طفل أفرط في يوم العيد في اللعب والضحك والصياح. ودق ذلك الناقوس داخل صدر نيكول. صعد الدم إلى وجنتيها، شدت كل عزيمتها كي تمنع ارتجاف شفتيها. ذات مساء من شهر شباط، كانت الستائر مسدلة وضوء مصباح فوق قوس قزح الوسائد، وهذه الدوّامة من الغياب التي انحفرت فجأة. "سوف يعيش مع أخرى، في مكان آخر." حسن، علي أن آخذ نصيبي من ذلك، قالت لنفسها.

كانت الفودكا مثلجة والكافيار بلون رمادي مخملي. ماشا تعجبها، سيكون لها أندريه طوال شهر. كانت تشعر بالسعادة الكاملة وهو أيضاً يجلس على كنبة بين سريرين، ماشا في جهة ونيكول في الأخرى. (في العام 1963، كان

يوري بمهمة تنقيب عن الآثار، واصطحب معه فاسيلي. كانت شقة ماشا خالية. هذه السنة، كي يقضي الأمسية معها بمفردهما، لم يكن هناك سوى غرفة الفندق هذه.)

- نظّمت وقتي كي أكون حرة كل الشهر، قالت ماشا.

كانت تعمل في دار لنشر المؤلفات الروسية الكلاسيكية باللغة الفرنسية في موسكو، وكذلك في مجلة مخصصة لدول غربية مختلفة. كانت تترجم نصوصاً معاصرة. لكنها كانت تقرأ أيضاً، تختار وتقترح.

- بإمكاننا الذهاب إلى فلاديمير[2] في نهاية الأسبوع – استأنفت- ثلاث ساعات بالسيارة.

كانت تتباحث مع نيكول: نوفغورود، بسكوف، روستوف الأكبر، لينينغراد. ترغب نيكول بالتحرك، فليكن، أن تأتي إلى روسيا كي تسعد أندريه، هذا كثير، يريد أن تعود عليه الرحلة بالمتعة. كان ينظر إليهما وقلبه مفعم بالحب. كانت

[2] فلاديمير: مدينة روسية تشكل جزءاً من مدن حلقة الذهب لروسيا القديمة تقع حول موسكو. م.

ماشا لطيفة جداً مع نيكول، أكثر مما هي مع كلير، تلك الحمقاء الجميلة التي، لحسن الحظ، استعجلت أوراق الطلاق أكثر منه بكثير بعد تأكيد شرعية طفلتهما. كان مسروراً لأنهما تتفاهمان على نحو ممتاز. هما أكثر شخصين يحبهما في العالم. (تجاه فيليب، لم يستطع قط تجاوز الشعور بشيء من الغيرة. كان في معظم الأحيان بالنسبة إليه وإلى نيكول طرفاً ثالثاً. كانت نيكول تهمه أكثر من ماشا. ولكن إلى جانب ماشا كان يحسّ بأنه لولاها لم يكن ليعرف قط شعوراً عاطفياً. المغامرات، لاشيء كان يمنعه من عيش المزيد منها. كانت نيكول قد صرّحت ذات يوم بأنها تجد نفسها مسنّة جداً لمتع السرير. هذا سخف، كان يحبها كما هي اليوم مثلما كان يحبها في الماضي.) أعطته حريته إذاً. في الواقع، كانت ماتزال قادرة جداً على إثارة نوبات الغيرة، ولم يكن لديهما الوقت الكافي ليعيشانه كي يبدداه على المشاجرات. كما أنها على الرغم من الرياضة والمراقبة الصارمة، لم يعد جسمها يعجبها. لم يكن بالهدية اللائقة بسيدة. لم يكن هو يتألم من عفتها (إلا بشكل انعكاسي، حين يرى في

لامبالاتها إشارة إلى سنّه). ولكن كان يفكر دون سرور:"انتهى الأمر، لم تعد تحتفظ لي الحياة بشيء مفاجئ." ثم كان هناك ماشا وماتزال.

- ألن يغضب زوجك لأننا انتزعناك منه؟ سأل.

- يوري لا يغضب أبداً، قالت ماشا بجذل.

وفقاً لحديثهم في البراغا، كانت تبدو كأنها تشعر حيال يوري بالصداقة أكثر من الحب، ولكن في نهاية الأمر، كان ذلك حظاً ملائماً لها نوعاً ما. كانت قد تزوجت تحت تأثير نزوة، كي تبقى في روسيا، مشمئزة من الوسط الذي ترتاده والدتها وزوجها ومن العالم الرأسمالي عموماً. أصبحت هذه البلاد وطنها. من هنا كان يأتي بعض السحر الذي لديها في نظر أندريه.

- كيف هو الوضع هذه السنة، على المستوى الثقافي؟

- كالعادة. نناضل، قالت ماشا.

كانت تعتبر نفسها من الفريق الذي تسميه الحر الذي يناضل ضد الأكاديمية والدغمائية والرقابات الستالينية.

- وهل تكسبون؟

- أحياناً. تسري إشاعة أن بعض العلماء يتحضرون لتحطيم الفكرة المقدسة لجدلية الكون. سيكون هذا نصراً عظيماً.

- شيء جميل أن يكون للإنسان قضية يناضل في سبيلها، قال.

- وأنت أيضاً تناضل، قالت نيكول بمرح.

- لا، ليس منذ حرب الجزائر. أحاول تقديم الخدمات، هذا ليس الأمر نفسه. علاوة على ذلك، هذا نضال لا جدوى منه دائماً.

منذ العام 1962، فقد أندريه كل تأثير على العالم. وربما لهذا السبب كان يتململ بشدة لأنه لم يعد يؤثر. كان عجزه – عجز كل اليسار الفرنسي- يكدّره أحياناً، بالأخص عند استيقاظه. حينئذ، عوضاً عن النهوض، كان ينطوي داخل الأغطية مثنياً الشراشف فوق رأسه إلى أن يتذكر موعداً عاجلاً فيقفز من سريره.

- حسن، لماذا تفعل ذلك؟ قالت ماشا.

- لا أرى أي سبب لعدم القيام بذلك.

- يمكنك العمل لصالحك. تلك المقالات التي كنت تتحدث عنها منذ ثلاث سنوات...

- لم أكتبها. ستقول لك نيكول بأنني عجوز كسلان.

- ولكن لا- قالت نيكول- أنت تعيش الحياة كما ترغبها. لماذا تغصب نفسك؟

لم تعد تلحّ عليه مثل السابق، لكنها دون شك كانت حرباً منهكة. لم تكن لتعلق الكثير من الأهمية على موضوع إبنها لو لم تكن خائبة قليلاً من زوجها. بئس الأمر، إنه حر.

- مع ذلك، هذا مؤسف. قالت ماشا.

في داخله كان هناك صدى يردد: هذا مؤسف. حسرات نيكول، كان قد نال نصيبه منها، لكنه كان يود أن يقدم لماشا صورة مختلفة عن هذه: عجوز متقاعد لم ينجز شيئاً. كان لديه عن بعض

الأحداث المعاصرة أفكار تجدها نيكول هامة. عقد العزم على التعمق بها مراراً. كان الحاضر وحده ينهشه، لم يكن يرغب بالالتفات إلى الماضي قبل أن ينتهي من فهمه لعالم اليوم. وأي وقت يحتاج كي يكون على بيّنة! ومع ذلك، سوف يأتي اليوم الذي ينتهي فيه من هذا الاستقصاء، ويتابع المشاريع التي كان قد شرع بها بكل حميّة، لكنها أهملت مؤقتاً. غير أن اليوم لم يأتِ، وربما لن يأتي. كان اليوم يدرك أن المهمة لا نهائية. عاماً بعد الآخر كان يزداد اطلاعاً، ويجد نفسه أكثر جهلاً. الغموض والمصاعب والتناقضات، كل ذلك يزداد من حوله. تبدو له الصين غير قابلة للاختراق أكثر مما كانت عليه في العام 1950. سياسة روسيا الخارجية توقعه بالحيرة.

- لم يفت الأوان، قال بحماس.

كان قد فات الأوان، فهو لن يتغير. كان بوسعه حقاً أن يستعلم عن زمنه، وفي الوقت نفسه أن يستقصي عن موضوع من التاريخ. لو أنه عرف كيف يفرض على نفسه نظاماً مثل فيليب.

ربما لأنه خضع لكثير من الانضباط في طفولته، فإن كل إكراه يثير غيظه. كان قد احتفظ بحب الهروب من المدرسة للتسكع. هروب كلما كانت تشتد عقوبته كانت تزداد حلاوته. لم يلم نفسه بصدق قط على كسله، فقد كان نابعاً من انفتاحه على العالم ومن إرادته بالبقاء حراً. فجأة، تحت ناظري ماشا بدا له الأمر مختلفاً. عادة سيئة، دأب، عيب لا يُمْحى يوسمه. كان قد رضي به وهو ينبعث منه، حتى الآن، لو أراد، لم يكن بوسعه التغلب عليه.

- هذا مؤثر، كيف تتعلق بك ماشا. قالت له عندما أصبحا بمفردهما.

- أتساءل لماذا - قال- أظن أن يوري بالنسبة إليها هو رفيق أكثر منه سنداً. كانت تتمنى أباً. عندما وصلت إلى باريس في العام 1960، كانت قد عقدت العزم على أن تحبني.

- لاتكن متواضعاً جداً- قالت نيكول وهي تضحك- أنا أحببتك دون أن أقرر ذلك.

- كنت شاباً.

- لم تكبر في السن.

لم يعترض. لم يكن يبدو على نيكول أنها تعي عمرها، هو لم يكن يتحدث عن عمره، لكنه كان يفكر فيه في أغلب الأوقات بشكل مخزٍ. بسوء نية وطيش ولوقت طويل، كان يرفض وهو يروي القصص أن يحسب نفسه راشداً. ذلك الأستاذ، ربُّ العائلة الخمسيني، لم يكن هو حقيقة. وهاهي الحياة تنغلق عليه، لا الماضي ولا المستقبل كانا يقدمان له العذر بعد الآن. إنه ستّيني، عجوز متقاعد، لم يحقق شيئاً. مثل أي شيء آخر، الندم الذي لامسه، تبدّد فوراً. أستاذ في السوربون، مؤرخ معروف، كان سيجد نفسه من جديد مع هذا الوزر والمصير الآخر وراءه، ولم يكن أكثر وطأة عليه. الأمر المشين هو أن يجد نفسه محدوداً، موقوفاً، منتهياً، ذلك أن اللحظات الزائلة تتجمع وتشكل من حولك قشرة، وفي داخلها تكون قد وقعت في الفخ. قبّل نيكول واستلقى في السرير. الأحلام، على الأقل هذا ما تبقّى. شدّ وجنته على الوسادة. كان يحب الشعور بالتسلل إلى النوم. كانت أحلامه تبلبله جذرياً أكثر

من أي كتاب أو أي فيلم. يغتبط من مجانيتها، إلا من تلك الكوابيس القميئة التي تتساقط فيها أسنانه داخل فمه. في أحلامه، ليس له عمر، كان يهرب من العمر. هذه الأحلام موجودة في تاريخه وتشرق على ماضيه، لكنها بالنسبة إليه، وعلى نحو غامض لم تكن تمتد إلى المستقبل، كان ينساها. حاضرٌ صرف. ليلة بعد ليلة تمّحي، وتظهر دون أن تتراكم. تجدّد أبدي.

....

- ولكن أريد أن أعرف لماذا يحظر على الأجانب الذهاب إلى فلاديمير بالسيارة، قال أندريه.

كان القطار يسير دون ارتجاج، لكن كل مقاعد العربة كانت عكس العربة القاطرة، ونيكول لا تتحمل السفر بالسير إلى الوراء دون أن تضطرب معدتها. (يا لها من إهانة، في الزمن الذي كانت تنافس فيه الصبيان بالصحة والقوة والاحتمال!) كانت تجلس راكعة فوق مقعدها، بمواجهة أندريه وماشا. مع الوقت أصبح الأمر مؤلماً.

- أعرف أن لا شيء يمكن فهمه - قالت ماشا - الطريق جيدة، القرى التي تُجتاز مزدهرة. إنها السخافة البيروقراطية هي سرّ انعدام الثقة بالأجانب.

- لطف وسوء ظن، يا له من مزيج مضحك! قالت نيكول.

حيّرهم ذلك في العام 1963 في صفوف الانتظار أمام الضريح، في الغوم[3]، وعلى أبواب المطاعم، كانت كلمة واحدة من ماشا كافية كي يفسح الناس لهم للمرور. مع ذلك لاقوا في القرم الموانع في كل مكان. الساحل الشرقي لسيباستوبول[4] كان محظوراً على الأجانب. كانت إدارة السياحة الداخلية قد ادّعت أن الطريق الجبلي الذي يربط يالطا بسيمفوروبول قيد الإصلاح. لكنهم قالوا سراً لماشا إنه بالحقيقة مغلق في وجه الأجانب.

- ألم تتعبي كثيراً؟ سأل أندريه.

- سأكون على مايرام.

---

[3] الغوم: مركز تجاري كبير يقع في الساحة الحمراء ويضم مخازن فخمة. م.

[4] سيباستوبول: مدينة تقع في الجنوب الغربي لشبه جزيرة القرم. م.

كانت منهكة قليلاً، لكنها كانت تنسى ذلك وهي تتفرج على انسحاب الريف الممتد الوادع، يلطّفه نور شمس لا تتوقف عن المغيب. ها قد أمضت أربعة أيام جميلة. تغيّرت موسكو قليلاً، بالأحرى ازدادت قباحة. (من المحزن أن التغييرات تنحو منحى سيئاً تقريباً دائماً. بالنسبة للأماكن كما للأشخاص). شقّوا شوارع عريضة، هدموا أحياء قديمة. الساحة الحمراء التي منعت السيارات من دخولها بدت أكثر اتساعاً وأكثر مهابة: مكان مقدس. عندما كانت في الماضي تشمخ إلى السماء، الآن لسوء الحظ هناك وراء كنيسة القديس باسيل فندق هائل يحجب الأفق. ولكن هذا لم يمنع نيكول من مشاهدة كنائس الكرملن مجدداً، أيقوناتها وأيقونات المتاحف بكل فرح. كان مايزال هناك الكثير من البيوت القديمة التي تسحرها، بالأخص في المساء حين يُرى عبر النوافذ الزجاجية وستار النباتات الخضراء ضوء دافئ لمصباح أباجورة قديمة بشراريب من الحرير البرتقالي أو الوردي.

- انظرا، هاهي فلاديمير، قالت ماشا.

وضعوا حقائبهم في الفندق. تأخر الوقت كثيراً للعشاء فيه، فقررت ماشا أن يأكلوا خارجاً في الطبيعة. وسط السماء التي كانت ماتزال وردية، ارتفع قمر كامل الاستدارة. سلكوا طريقاً محاذياً لأسوار الكرملن. عند أقدامهم نهر ومحطة قطار ولألأة أنوار تبهر الأبصار. عبروا حديقة لها رائحة القبس والبتونيا[5] حيث تعلو كنيسة، عشاق يتعانقون فوق المقاعد.

- يمكننا التوقف هنا، قالت نيكول.

- أبعد قليلاً أفضل، قالت ماشا.

كانت تأمر وهما يطيعان ونيكول مستمتعة بذلك لأنها ليست معتادة على الطاعة.

تابعوا سيرهم ودخلوا إلى حديقة أخرى تحيط بكنيسة ثانية.

- لنجلس هنا، هذه أجمل كنيسة في فلاديمير.

رشيقة، ممشوقة، تكلّلها قبّة بصلية الشكل، مذهّبة، واحدة فقط، ثوبها الأبيض تغطيه حتى

---

[5] القبس والبتونيا: أزهار تزيينية رائحتها عطرة. م.

الوسط تطريزات. كانت تشع ببساطتها. جلسوا، وفتحت ماشا سيرة الطعام.

- سآخذ فقط بيضتين مسلوقتين، قالت نيكول.

- ألست جائعة؟

- بلى، ولكن لا أريد أن أسمن.

- آه، لا تكوني مهووسة، قالت ماشا. سوف تأكلين أكثر قليلاً!

صوت ماشا الفظ والمستنكر جعل نيكول تبتسم. لا أحد كان يكلمها بهذه اللهجة. قضمت البيروجوك[6].

- هل يوري وفاسيلي طائعان مثلي؟

- هما ليّنا العريكة جداً، قالت ماشا بمرح.

- حاولي إذاً إحراج والدك. قولي له بأنه بأربعين لفافة في النهار يخاطر بسرطان الرئة.

- اتركاني وشأني أنتما الاثنتان، قال أندريه مجاملاً.

---

[6] البيروجوك: معجنات صغيرة على شكل لقيمات محشوة باللحم او بالجبن أو بالخضار.م.

- صحيح، أنت تدخن كثيراً، قالت ماشا.

- أعطني الفودكا إذاً.

ملأت ماشا أقداح الكرتون وخلال لحظة أكلوا وشربوا بصمت.

- جميلة هذه الكنيسة - قال أندريه بصوت حزين - أتطلع إليها بكل ناظري وأنا عارف بأنني بعد ثمانية أيام لن أتذكرها.

- وأنا أيضاً، قالت نيكول.

نعم، قد تنسى الكنيسة البيضاء والمذهبة، نسيت الكثير! ذاك الفضول الذي احتفظت به دون عيب لم يكن يبدو لها في أغلب الأحيان سوى أثر باق مهووس. ما نفعه والذكريات تتساقط غباراً؟ كان القمر يلمع ومعه النجمة الصغيرة التي ترافقه بكل وفاء، ونيكول تردد بينها وبين نفسها أبيات الشعر الجميلة لأوكاسان ونيكوليت:

" أراك وأنت تتزينين

يزداد القمر بياضاً".

هذه ميزة الأدب، قالت لنفسها: الكلمات نحملها معنا. الصور تذوي، تتشوه، تنطفئ. لكنها كانت تستعيد الكلمات القديمة داخل صدرها، تماماً مثلما كانت مكتوبة. كانت توحّدها مع العصور القديمة عندما كانت النجوم تلتمع مثل اليوم تماماً. وهذه الولادة الجديدة، وهذه الاستمرارية، كانت تعطيها شعوراً بالخلود. بليت الأرض، مع ذلك هناك أوقات كهذه تبدو فيها فتيّة مثل الأزمنة الأولى، ويكون الحاضر فيها مكتفياً بذاته. هاهي نيكول هنا تتطلع إلى الكنيسة، بلا سبب، فقط لتراها. بعد أن دفّأتها جرعات الفودكا، وجدت في هذا التجرد سحراً جارحاً.

عادوا إلى الفندق. لم يكن هناك ستائر على النوافذ، لكن نيكول عقدت منديلاً حول رأسها ونامت بسرعة.

يقظة ملؤها الرقة. في الغرفة الغارقة في النور كان أندريه متقوقعاً في سريره، معصوب العينين مثل محكوم بالموت، يسند يده إلى الجدار بحركة طفولية، وكأنه في نومه المضطرب كان يحتاج إلى الشعور برسوخ العالم. كم مرة جلست على طرف السرير- هل

ستجلس أيضاً- تضع يدها على كتفه، تهزّه بنعومة. كان أحياناً يهمس: "صباح الخير أمي الصغيرة" ثم ينتفض ويبتسم بهيئة مذهولة. وضعت يدها على كتفه.

- أريد أن أريكم شيئاً، قالت ماشا. وهي تدفع باب الكنيسة.

كانت تقودهم في العتمة.

- انظرا المصير المعدّ للغرباء.

كانت اللوحة الجدارية تمثل الدينونة الأخيرة. على اليمين ملائكة ومختارون لاعمر لهم بأثواب طويلة، وعلى اليسار منذورون للجحيم، فرنسيون ببذلات عصرية، أو بملابس تدريب الرقص السوداء، أو بسراويل مشدودة عند ربلة الساق، مع ياقات صغيرة من الدانتيل ولحيات مدببة، ووراءهم مسلمون بالعمامات.

- هذا تراث قديم بالتأكيد، قالت نيكول.

- في الواقع، خلال فترات نادرة فقط، كانت روسيا منفتحة بشكل واسع على الغرب.

لكن بعض الأوساط بقيت بالنسبة إليها عدائية، بشكل خاص داخل الكنيسة. لاحظوا أنهم ملعونون لأنهم كافرون، وليس بسبب جنسيتهم.

- عملياً، الأمر سيان، قال أندريه.

كان في مزاج سيء هذا الصباح، في حين كان النهار السابق رائعاً. كان يحب فلاديمير وكنائسها وجداريات روبلوف، وسيان عنده إن لم يأكل جيداً فقد غذّته أمه جيداً. لكن الأحاديث الجذابة مع ماشا كانت تثير حماسه. حتى ذلك الحين، كان مقتنعا بشدّة بأنها تشاركه آراءه.

- ليس من السهولة اقتلاع جنسيتك - استأنف وهو خارج من الكنيسة – بالمحصلة، ما شرحته لي للتوّ هو أنكم لم تعودوا بلاداً ثورية، والأمر جيد جداً هكذا.

- إطلاقاً. الثورة، نحن لم نقم بها وهي ليست موضوع كلامنا. ولكنكم لاتعرفون في فرنسا عنها سوى الحرب. نحن نفهم بعضنا ولانضمر الحقد.

تكلمت ماشا بغضب، وأندريه أيضاً كان يشعر بالسخط.

- لاأحد يقبل بذلك. ما أقصده هو أنكم إذا أطلقتم أيدي أميركا، إذا لم توقفوا التصعيد، عندئذ يُخشى من الحرب. ميونيخ لم تمنع شيئاً.

- هل تعتقد أننا إذا قصفنا القواعد الأميركية، فلن ترد الولايات المتحدة؟ نحن لن نقوم بهذه المخاطرة.

- وإذا ما هاجموا الصين، ألن تعترضوا أيضاً؟

- آه! لا تبدأ من جديد - قالت نيكول- ها قد مضت ساعتان وأنتما تتجادلان. لم يقنع أحدكما الآخر.

مشوا لحظة بصمت. كانت الشوارع مكتظة بالناس. يصادف اليوم عيد أشجار البتولة: بديل لعيد الرب دون شك. أناس رقصوا حتى منتصف الليل في ساحة رقص واسعة في الهواء الطلق (دون طاولات ولا كراسي، فقط حلبة محاطة بالحباك).

باكراً هذا الصباح، تعاقبت فوق الجادة المركزية شاحنات تحمل فتيات يلبسن فساتين

بيضاء وفتيان بربطات عنق حمراء، يمسكون في أيديهم أغصان البتولة. كانوا يغنون. داخل الحديقة الكبيرة، حيث تم تحويل أحد الأجنحة إلى مقصف. كان هناك طاولات صغيرة في الخارج وأخرى كبيرة في الداخل تتكدس عليها حلويات الكاتو والساندويشات الصغيرة.

- دعونا نجلس ونأكل شيئاً، قالت ماشا.

- آه، نعم. إذا استطعنا أن نأكل شيئاً، لنأكل، قالت نيكول.

في الأمس كان القحط في فلاديمير. لم يكن المطعم يقدم لا السمك ولا الدجاج ولا لحم الضأن ولا الخضار ولا الفاكهة. يخنات فقط وجدتها نيكول وماشا لا يمكن هضمها. الخبز، لا أسمر ولا أبيض وله طعم الصمغ. أمام الفندق، كانت تقف صفوف الانتظار لشراء فطائر تتكسر عليها الأسنان. وها نحن نرى هذا الصباح نساء يخرجن من الجناح محملات بأكاليل البيرتزل[7]

---

[7] البيرتزل: نوع من الخبز يغمس في محلول الصودا على شكل عقدة ومرشوش بالملح الخشن، يصنع في جنوب ألمانيا. م.

وسلالهن محشوة بالطعام. طلبوا قطع الكاتو وساندويشات البيض والجبن، كانت رائعة.

- لاشيء يؤكل في المدينة، وهنا هذه الوفرة؟ ما تفسير ذلك؟ قال أندريه.

- قلت لك يجب ألا تحاول الفهم، قالت ماشا.

بحسب رأيها، يجب ألا تندهش من أي عدم ترابط أو من أي عبثية. بقيت البلاد مثقلة بجهاز بيروقراطي متحجّر، مسؤول عن تبديدات هائلة الحجم وبمقادير تدعو للشلل. كانت الحكومة تجهد بكل الوسائل لتكافح هذا التقصير، لكن كان يلزم الوقت كي تتغلب عليه.

- تذكّر قصة مقاعد التلاميذ، استأنفت.

كانت تتلوى من الضحك وهي تخرج من الفندق صباح البارحة بسبب البرنامج الذي كانت قد سمعته من راديو فلاديمير: أحد المصانع يصنع مسند الكراسي، وآخر يصنع المقاعد، وأخيراً يقوم مصنع بتجميعها. ولكن من ناحية، كان هناك دائماً

نقص إما بالمقاعد أو بالمساند، ومن ناحية أخرى، عندما كانوا يحاولون تركيب القطع، كانت إحداها تتحطم. وبعد الخطوات سلسلة من الإجراءات والتحقيقات والمراجعات والتقارير، استنتجوا أن طريقة التجميع فيها خلل. ولكن كان يلزم متابعة دورة إدارية هائلة قبل أن تتم الموافقة على تغييرها: "إنها السخافة الخالصة"، قالت ماشا وهي تشير إلى أن نشر هذه القصة عبر المذياع قد ساهم بالنضال ضد البيروقراطية.

كانت تحكم على النظام بكثير من الحرية، إنها ناقدة وثاقبة الفكر، وإذا كانت تحبذ السياسة الخارجية فليس ذلك نابعاً من طاعة عمياء إذاً، وإلا لتضايق أندريه أكثر. لكنه لم يكن يرغب باستئناف الحديث عن ذلك، ليس الآن. نظر إلى الجموع حوله: كانت الوجوه مفعمة بالفرح، والناس شاركت بكل رضاها بتلك العروض والاحتفالات وكل هذا العيد. بيد أنه يبدو عليها كأنها مؤطرة بقسوة. إنهم يخضعون للتعليمات. مرح وانضباط، الأمر ليس متناقضاً، لكنه ودّ لو يعرف كيف يتوافقان؟ بطريقة مختلفة دون

شك، بحسب الأعمار والظروف. لو أنه فهم فقط ماذا كانوا يقولون!

- لو أنك تعطينا دروساً بالروسية، قال لماشا.

- آه، لا! قالت نيكول. حتى الأبجدية لا أعرفها. ماذا تريدني أن أتعلم خلال شهر؟ أنت خذ دروساً إذا كان الأمر يسليك، أضافت.

- سوف تضجرين في هذه الأثناء.

- ولكن لا، سوف أقرأ.

- حسناً، غداً في موسكو سوف نبدأ - قال أندريه- ربما سأشعر بالضياع أقل.

- هل تشعر بالضياع؟

- كلياً.

- سوف تكون هذه أول كلماتك لدى وصولك إلى الجنة أو إلى الجحيم: أشعر بالضياع الكلي، قالت نيكول وهي تبتسم له بحنان.

لقد ابتسمت دائماً لحيرته. أثناء السفر كانت تتقبل الأشياء كما هي. "ماذا إذاً! إنها أفريقيا وهي مستعمرة!" كانت تقول له في غَردايا[8] (أول لقاء لأندريه بالجزائر عندما كان ما يزال فتياً جداً. كان ثمة جِمال، ونساء بالحجاب، ولكن داخل بقاليات علب الكونسروة والخردوات تصبح بلاد العرب بعيدة وتتحول إلى قرية فرنسية. لم يستطيعا فهم هؤلاء الناس الذين كانا يلتقيان بهما: بهم كيف يشعرون بهذا الانتماء المزدوج). أسباب حيرته الآن أكثر جدية بكثير. كيف كان يشعر إنسان سوفييتي في قرارة نفسه؟ إلى أي حد كان هؤلاء الشباب الذين يمرّون وهم يغنون شبيهين بالشبيبة عندنا؟ بماذا هم مختلفون؟ كيف تمتزج فيهم إرادة البناء والاشتراكية والأثرة الوطنية؟ أشياء كثيرة تتعلق بالأجوبة التي يمكن أن تعطى لهذه الأسئلة.

- أنت مخطئ إذ تتحدث عن الأثرة.

قالت له ماشا بعد بضع ساعات في الغرفة، حيث كانوا يستريحون وهم يشربون الشاي بعد نزهة طويلة. استأنفت حديث الصباح بلهجة أكثر هدوءاً:

---

[8] غرداية: ولاية غرداية في الجزائر. تقع في وسط الجزء الشمالي للصحراء الجزائرية وهي عاصمة وادي مزاب. وهي جزء من التراث العالمي ومركز سياحي شهير بسبب عمرانها وتاريخها. م.

- الحرب الذرية لا تعنينا نحن فقط! بل العالم بأجمعه. مع ذلك، بما أننا متنازعون ما بين أمرين حتميين: دعم الاشتراكية وإنقاذ العالم، فنحن لا نريد التخلي لا عن هذا ولا عن ذاك.

- آه، أعلم جيداً أن الوضع ليس بسيطاً.

- لو أنكما تتوقفان هنا - قالت نيكول بمرح - تريدني ماشا أن أرى ترجمتها، إذا لم نفعل ذلك فوراً لن يكون لدينا الوقت.

- نعم، يجب أن نبدأ فوراً، قالت ماشا.

جلستا متقابلتين على الطاولة. فتح أندريه دليلاً عن روسيا كان قد أحضره معه من باريس، وتظاهر بأنه مستغرق به، ولكن أفكاره كانت تراوح مكانها. صحيح أنه لا يمكن استبعاد فرضية رد أميركي مخيف لكل محاولة لمنع التصعيد. إذن؟ القنبلة التي لم تكن في العام 1945 سوى تهديد شديد الوضوح. أصبحت اليوم احتمالاً مقلِقاً. ثمة أناس لا تقلِقهم، ويقولون: "بعد موتي، سواء بقيت الأرض أم، لا، الأمر سيان عندي." لا بل إن أحد أصدقاء أندريه قال: "إذا كان لابد من

ذلك، فسيكون أسفي أقل إذا ما فكرت أنني لم أترك أثراً وراءي." أما هو فكان لينتحر فوراً لو عرف أن الأرض كانت ستنسف، أو بكل بساطة، كل الحضارات ستدمّر، وأن استمرارية التاريخ المحطّم – الباقون على قيد الحياة صينيون دون شك- ستبدأ من الصفر. ربما كان سيناصر الاشتراكية، لكن اشتراكيتهم لا علاقة لها بتلك التي حلم بها والداه ورفاقه وهو نفسه. ولكن لو أن روسيا استمرت بالتعايش السلمي فالاشتراكية ليست للغد. كم من آمال خابت! في فرنسا، الجبهة الشعبية، المقاومة، تحرير العالم الثالث الذي لم يجعل الرأسمالية تتراجع قيد شعرة. كانت الثورة الصينية قد بلغت حد الصراع الصيني السوفييتي. لا لم يبدُ المستقبل قط لأندريه محزناً لهذه الدرجة. "لم تنفع حياتي بشيء." فكّر. ما كان يتمناه هو أن تكون نافعة في تاريخ يوجّه البشر نحو السعادة. سوف يتوصلون إلى ذلك ذات يوم دون شك. لقد كان لدى أندريه إيمان بهذا لوقت طويل، بحيث لا يمكنه التوقف عن ذلك ولو قليلاً. ولكن بسبب انعطافات كهذه سوف يتوقف التاريخ عن أن يكون تاريخه.

أعاده صوت نيكول من أفكاره.

- لغـة ماشـا الفرنسـية صـحيحة تمامـاً، بالأحرى جيدة جداً، متكلّفة الرصانة إلى حد ما.

- أخشى كثيراً ارتكاب الأخطاء، قالت ماشا.

- هذا واضح.

من جديد، انحنتا فوق الأوراق التي طبعتها ماشا على الآلة الكاتبة، تبتسمان لبعضهما البعض وتتهامسان. نيكول الصارمة عموماً مع النساء، كانت تحمل تجاه ماشا مودة حقيقة، وكان وفاقهما يسرّ أندريه.

- أنا أيضاً أريد أن أرى هذه الترجمة، قال.

حتى لو كان المستقبل يبدو له محزناً، يجب عدم إفساد هذه اللحظة الحلوة من الحميمية. لقد تخلص من اجترار أفكاره.

....

- سأجلس بكل سرور، قالت نيكول.

كـان المطعـم الأوزباكسـتاني سـاحراً بخيامـه الصـغيرة فـي الهـواء الطلـق وزبائنـه الأجانـب. رجـال وجـوههم مسـطحة وعيـونهم ضـيقة يعتمـرون القلنسـوات المربعـة، النسـاء بـأثواب حريريـة متعـددة الألـوان وجدائلهنّ سوداء ثخينة. يقدّم فـي المطعم أطيب شَشليك[9] فـي موسـكو. ولكـن كـان الأمـر ذاتـه فـي كـل مكـان، أجبرهم صخب الأوركسترا على الهرب مع آخر لقمة يبتلعونها. اقترحت ماشا نزهة، وبما أنهم مشوا كثيرا خلال النهار، كانت نيكول تشعر بالتعب. إنه أمر

[9] الششليك: لحم الكباب المشوي. م.

مغيظ، في الماضي كانت تقطع الكيلومترات بكل نشاط مثل أندريه! الآن، وفي كل مساء، بعد تسكّعهم الطويل، كانت ساقاها تخذلانها. لم تكن تظهر ذلك، ولكن قصارى القول: كان من السخف إرغام نفسها على ذلك. مرّوا أمام مقعد خال، حظ نادر، الأفضل استغلاله. جلسوا.

- طيب، هل يمكننا أخيراً أن نذهب إلى روستوف[10] أم لا؟

- أخشى كثيراً أننا لن نستطيع، قالت ماشا.

- والرحلة الصغيرة على نهر موسكوفا؟

- بإمكاني أن أسأل...

- آه، لماذا لا نبقى ببساطة في موسكو؟ قال أندريه - أمامنا أشياء كثيرة لنشاهدها.

- في كل الأحوال سوف نعيد مشاهدتها.

[10] روستوف: مدينة تقع على مسير حلقة الذهب الروسية وهي شاهد على ثراء الهندسة المعمارية الروسية. م.

إعادة مشاهدتها. عندما كانت في الأربعين من عمرها، كانت تبتهج لذلك في حينها. كانت تتعطش لكل ما هو جديد. الآن أيضاً. بقي لها سنين قليلة لتعيشها. كانت المراوحة يوماً بعد يوم في الساحة الحمراء مضيعة للوقت. إنها رائعة الجمال. كانت قبل ثلاثة أعوام صادمة. وهذه السنة أيضاً في اليوم الأول. لكن نيكول كانت تعرفها جيداً. هذا هو الفارق بين الرحلة الأولى وهذه. في العام 1963 كان كل شيء جديداً. من هنا نبعت دون شك، الخيبة الخفيفة.

- وأين سنمضي الأمسية؟ سألت.

- لماذا لانمضيها هنا؟ قال أندريه.

- على هذا المقعد، كل الأمسية؟

هذه السنة لم نكن نعرف أين نذهب في المساء. كان يوري يبدو لطيفاً جداً، بما أنه لا يتحدث الفرنسية، فقد كانت العلاقات معه في الغالب وجيزة، لكنه كان يعمل هو وفاسيلي، كل واحد في غرفته، وكي لا نزعجهما كان علينا أن

نهمس. ومع ذلك، كنا نشعر بالضيق. لم تكن غرفة الفندق رحبة. أُنشئت الكثير من المقاهي خلال تلك السنوات الثلاث. من الخارج، لم تكن قبيحة بجدرانها الزجاجية، ولكن من الداخل كانت شبيهة بمحلات الألبان، كما تفتقر إلى الراحة والحميمية. فضلاً عن ذلك، كانت مغلقة في مثل هذه الساعة. إذن، على هذا المقعد في حديقة صغيرة لها رائحة الوقود بالقرب من محطة المترو؟

- نحن مرتاحون هنا - قال أندريه - رائحة عشب طيبة.

كان يحسّ بالراحة أينما كان. بثوب من الفلانيل لم يكن يبرد. كانت ماشا ترى كل طقس فوق العشر درجات حارّ، لكن نيكول كانت ترتعش في ردائها المكون من قطعة منديل واحدة. فضلاً عن ذلك: أمسية بكاملها على مقعد!! سوف تشعر بأنها منكوبة.

- أنا بردانة، قالت.

- يمكننا الذهاب إلى بار ناسيونال، قالت ماشا.

- فكرة طيبة.

كـان البـار يبقـى مفتوحـاً حتـى الثانيـة صباحاً، ويتم الدفع فيـه بالعملـة الأجنبيـة، ويمكن الحصول على ويسكي وسجائر أميركية. كانت قد لفتـت انتبـاه أندريـه ونيكـول يـوم تنـاولوا الغـداء هنـاك، لكنهمـا لـم يجيبـا بشـيء. كانـت ماشـا قـد حفظـت ذلـك وفـي هـذه الأثنـاء تذكرتـه فـي الوقـت المناسب. نهضوا.

- هل هو بعيد؟

- نصـف سـاعة مشـياً علـى الأقـدام. ربمـا نجد سيارة أجرة، قالت ماشا.

كانـت نيكـول تتمنـى العثـور علـى سـيارة أجـرة فقد كانـت تحـس بـالألم فـي سـاقيها وقـدميها. عمومـاً كـان مـن السـهل العثـور علـى واحـدة. لقـد تضـاعف عـددها منـذ العـام 1963. هـذا المسـاء كان يمر العديد منهـا وضـوؤها الأخضـر الصـغير يـدعو للتفـاؤل، ولكـن رغـم إشـاراتهم لهـا، كانـت السـيارة تنسـل بـلا هـوادة. فـوق تلـك الشـوارع

الواسعة، لم يكن لها الحق بالتوقف. كان أقرب موقف للسيارات بعيداً جداً، وقد يكون هناك صف انتظار طويل ولا يوجد سيارة. المشي والجلوس فوق المقاعد، ريجيم قاسٍ. ربما كانت موسكو بالنسبة إلى سكانها جيدة جداً، لم تكن ماشا ترغب بالعيش في مكان آخر، بالأخص ليس في باريس. (وهذا ماكان يدعو للدهشة بالطبع). ولكن بالنسبة للأجانب، يا له من تقشف! ربما كبرت في السنّ خلال هذه السنوات الثلاث، قالت نيكول لنفسها. أصبح تحملي لانعدام الرفاهية أقل. سوف يزداد الأمر سوءاً. "فوق سطح آخر العمر" كان أندريه يقول. يا له من سطح مضحك. أشواك.

- سوف أقع من التعب، قالت.

- ها قد وصلنا.

- كم هو قبيح التقدم في العمر.

أخذتها ماشا من ذراعها: "هيا إذاً! أنتما في عز الشباب، أنتما الاثنان."

لطالما قالوا لها ذلك: تبدين شابة، أنت فتية. مجاملات ملتبسة تبشّر بشقاء الأيام القادمة. حين نحتفظ ببقايا حيوية ومرح وسرعة بديهة نبقى شباباً. نصيب الكهولة إذاً هو الرتابة والكآبة والخَرَف. يقولون: الشيخوخة شيء غير موجود، إنها لاشيء، لا بل إنها جميلة جداً ومؤثرة جداً، لكنهم حين يصادفونها يُلبسونها كلمات كاذبة. كانت ماشا تقول: أنتما يافعان، لكنها أخذت بذراع نيكول. في الأساس، كانت نيكول منذ وصولها تشعر بكبر سنّها بقوة بسبب ماشا. لقد أدركت أنها منذ سن الأربعين أوقفت الصورة التي لديها عن ذاتها. كانت ترى نفسها في تلك المرأة الشابة القوية العزم. كانت ماشا ممتلئة بالخبرة والسلطة والنضج تماماً مثل نيكول. هما متشابهتان، وفجأة تنمّ عنها لفتة، تغيير في نبرة الصوت، ملاطفة تذكّرها بأن عشرين سنة تفرق بينهما، وأن عمرها ستون.

- يا له من ازدحام! قال أندريه.

كان البار عابقاً بالدخان وصاخباً. ثمة طاولة وحيدة محصورة بين شبان أميركيين بضحكاتهم

الجمهورية وفرنسيين عجائز يتمازحون بصوت عالٍ، ألمانيون من ألمانيا الغربية يغنون معاً، (العملة الأجنبية فقط كانت مقبولة). أسطوانة موسيقا جاز تدور، بالكاد تسمع، لكن كان من الممتع استعادة طعم الويسكي، وطعم سهرات باريس مع أندريه وفيليب. (الطقس حار هناك، كانوا سيجلسون في إحدى شرفات مونبارناس.)

- هل تروق لك العودة إلى الغرب؟

- لوقت قصير، نعم.

كان يقطع كل الجسور. لم يكتب لأحد. بالكاد كلمة صغيرة إلى فيليب خربشها في آخر رسالة من نيكول إلى فيليب. كان يبتسم في الصباح عندما كانت تشتري بعناد جريدة "لومانيتة"، قديمة من عدة أيام. لطالما كان هو هكذا أثناء السفر. ينسى باريس بسهولة. لم يكن له جذور فيها.

- كل شيْ هنا مصطنع ومضحك. قال بهيئة متعبة.

- هل تريد أن نذهب؟

- لا، بالتأكيد.

كان باقياً كي يسعد نيكول، إنما لم تكن لديه الرغبة بالعودة إلى هنا، وماشا أيضاً لم تكن مرتاحة، لا يوجد روس هنا باستثناء امرأتين غالتا بالتبرج، تبحثان بشكل واضح عن حظهما. مع ذلك، هو مكان ممتع ومنفتح، أو على الأقل بابه موارب على العالم. كان هناك رجل أسود طويل القامة بقميص أحمر قد شرع يرقص وحيداً والناس تتابع إيقاعه بالتصفيق.

- الشيء الغريب أنه يرقص جيداً، قالت نيكول.

- نعم.

كان أندريه يبدو ساهياً. اكتسب عادة مضحكة. منذ بضعة أيام وهو يضغط بإصبعه على خده في أعلى النيرة.

قالت وقد نفذ صبرها إلى حد ما:

- هل يؤلمك؟ راجع طبيب أسنان.

- لا يؤلمني.

- لماذا تجسّ خدك كل الوقت إذاً؟

- أتأكد أن لا شيء يؤلمني.

مرّت فترة كان يأخذ فيها نبضه عشرين مرة في النهار ونظره مثبت على عقارب ساعته. عادات غريبة تافهة لاقيمة لها، لكنها مع ذلك إشارة إلى ماذا؟ أن الحياة تتصلب والشيخوخة لك بالمرصاد. الشيخوخة: كانت تعرف عن ظهر قلب تعاريف قاموس اللاروس لها، والتي صدم نيكول عدم تماثلها. الشباب: صفة ما هو يافع. الشيخوخة: وهن بالجسم وبالذهن ينتج عن التقدم في السن.

....

رحل يوري ونيكول فور انتهاء الغداء، بقي أندريه مع ماشا كي يأخذ درس اللغة الروسية. مدّ يده نحو دورق الفودكا:

- يكفي عملاً اليوم. أضاف بامتعاض، لم يعد لدي ذاكرة.

- لكن بلى، أنت تبلي جيداً.

- لا أحفظ ما أتعلم. أنسى تباعاً.

شرب جرعة الفودكا وأومأت ماشا رأسها باستهجان.

- لن أعتاد أبداً على طريقة الشرب هذه.

أفرغت كأسه دفعة واحدة.

- صحيح أنه من السخف تعلم لغة خلال شهر واحد، قال.

- لماذا شهر واحد؟ هل لديكم شيء هام تفعلانه في باريس؟

- لاشيء.

- فإذاً؟ ابقيا هنا لوقت أطول قليلاً.

- لِمَ لا؟ سوف أتحدث بالأمر هذا المساء مع نيكول.

كانت موسكو مبهجة جداً بأيامها الصيفية الجميلة هذه. يتدافع الناس حول سيارات الصهاريج التي تبيع مشروب الكواس والبيرة بالمفرّق. كانوا يحاصرون الآلات الأوتوماتيكية التي تقذف مقابل كوبيك واحد ماء بارداً إلى حد ما، والصودا بطعم الفاكهة الخفي مقابل ثلاث كوبيات. كان يبدو السرور على وجوههم.

كانوا أقل انضباطاً بكثير مما تخيلهم أندريه. يعبرون الشوارع والإشارة حمراء بكل هدوء كأنها خضراء. أعاد التفكير بالحديث الذي جرى على الغداء مع يوري.

- لم يقنعني يوري، قال.

- مع ذلك، أؤكد لك بأنه على حق، قالت ماشا.

كانا قد تحدثا بشأن الاتفاقيات الأخيرة التي عقدت مع شركة رونو Renault، وكان أندريه مذهولاً من روسيا التي تتصور بأن تصنيع 600000 سيارة فردية أفضل من تحسين شبكة طرقاتها ونقلياتها العامة. لكن النقليات العامة تسير على مايرام، قال يوري، وإنشاء طرقات قبل أن يستشعر الناس بالحاجة إليها ستكون سياسة خرقاء. سوف يطالبون بها بأنفسهم عندما يمتلكون السيارات. حتى في الأنظمة الاشتراكية يحق للمواطنين ببعض الرغبات ذات النوعية الخاصة. كانت الحكومة تبذل جهدها لتطوير المواد الاستهلاكية، ويجدر تهنئتها عليه.

- هل تعتقدين أنه بالإمكان التوصل إلى تأسيس الاشتراكية بمضاعفة التسهيلات للملكية الخاصة؟

- أعتقد أن الاشتراكية صنعت من أجل البشر وليس العكس - قالت - علينا الاهتمام بمصالحهم لأجل قصير قليلاً.

- نعم، بالتأكيد.

ماذا تخيّل بالضبط؟ أن اهتمامات الناس هنا مختلفة؟ وأنهم يتعلقون أقل بالممتلكات المادية؟ وأن المثالية الاشتراكية باقية حيّة فيهم وتقوم مقام كل ما تبقى.

- يتهمنا الصينيون بالانحطاط، هذا غير معقول. يستحيل العودة إلى الرأسمالية. لكن كن متأكداً أن هذا الشعب لم يعش سوى التضحيات أثناء الحرب وأثناء مرحلة إعادة الإعمار، واليوم أيضاً، نحن لسنا مدلّلين. لايمكن فرض شظف العيش علينا إلى اللانهاية.

- شظف العيش هذا لايصدمني كثيراً. كانت طفولتي أقسى من طفولة فاسيلي. حياة أمي لم تكن سهلة. هي سعيدة الآن. - بقدر ما يمكن

للمرء أن يكون سعيداً وهو في الثالثة والثمانين- ذلك لأن احتياجاتها أقل.

- لماذا تقول: بقدر ما يمكن للمرء أن يكون سعيداً في الثالثة والثمانين؟ الشعور بأن وراءك حياة طويلة مليئة على نحو جيد، يمنح الكثير من الرضى.

كانت تتعمد تحويل مجرى الحديث. لم تكن تحب أن تتحدث مع أندريه عن ذلك الوطن الذي تتطلع إليه كوطنها الأم. توجيه الانتقاد أو المديح نحو الاتحاد السوفييتي، كانت تلومه على ذلك بشيء من الانزعاج.

- أنت غير واضح أبداً، كانت تقول له أحياناً.

تخلى عن الموضوع.

- في الثالثة والثمانين، لايعود لنا مستقبل وهذا يزيل كل سحر عن الحاضر.

- بالنسبة إلي، لو وصلت إلى هذا العمر، أحسب أنني سأمضي أيامي أروي

قصتي. إنه أمر رائع. ثلاث وثمانون سنة وراءك! مع كل ما شاهدت!

- حتى أنا. رأيت قدراً لا بأس به من الأشياء. ماذا تبقى لي منها؟

- ولكن تبقى لك كثير جداً! كل ما كنت ترويه لي البارحة، عن مرورك عند الصقور الحمر، عن النضالات الانتخابية في أفينيون...

- أنا أروي؟ لاأتذكر.

كان يفكر مراراً أنه سيكون رائعاً لو كان الماضي منظراً يتسكع في داخله على هواه مستكشفاً شيئاً فشيئاً تعرجاته وطياته. ولكن لا، كان بوسعه أن يتلو أسماء وتواريخ مثل تلميذ يسرد درساً أجاد حفظه. كان لديه معرفة مؤكدة وصوراً مقتطعة باهتة وجامدة جمود صور كتاب تاريخ قديم، تنبثق بشكل تعسفي فوق خلفية بيضاء.

- ومع ذلك، نزداد غنى مع التقدم في العمر- قالت ماشا- أشعر بأنني أغنى مما كنت في العشرين، وأنت، ألست كذلك؟

- أكثر قليلاً وأقل كثيراً.

- ماذا ضيّعت؟

- الشباب.

صبّ لنفسه كأس فودكا، الثالث؟ أو الرابع؟

- أنا أكره أن أكون شابة.

حدّق في وجهها بشيء من الندم. كان قد أنجبها ثم تركها لأم غبية وسفير.

- هل افتقدتِ غياب أب حقيقي؟

ترددت.

- ليس بشكل واع. المستقبل هو الذي كان يشغلني. الهروب من وسطي. النجاح في زواجي. تربية فاسيلي بشكل جيد. أن أكون مفيدة. فيما بعد، وأنا أنضج، شعرت بالحاجة إلى...، كيف

أقولها؟ إلى جذور. صار الماضي مهماً: أقصد فرنسا، وأنت.

كانت تنظر إليه بهيئة مطمئنة وهو يعتريه الإحساس بالذنب، ليس بسبب الماضي وحده، إنما لأنه كان يريد أن يقدّم لها اليوم كوالد إنساناً أكثر نجاحاً.

- ألا تشعرين بالخيبة قليلاً لأنني لست سوى رجل فاشل؟

- يا لها من فكرة! أولاً، مايزال أمامك الوقت.

- لا، لنقل الحقيقة، لن أفعل شيئاً بتاتاً. ربما في أسوأ الحالات فيما لو غادرت باريس.

لكن نيكول لم تكن تحتمل العيش في مكان آخر. وكذلك الابتعاد عن فيليب. قال ذلك ذات مرة ممازحاً وهي أجابته ممازحة: "سوف تموت من الضجر مثلي." كلا، هو كان يحلم بذلك على الدوام: وجود والدته خفيف جداً، لم تكن لتضايقهما. كان سيعمل في الحديقة، يصطاد سمك الترويت في مياه الغارد

الخضراء، ويمشي في البِراح مع نيكول، يقرأ، يتكاسل، وربما يعمل. ربما. ولكن في كل الأحوال، كانت هذه فرصته الوحيدة. أما في باريس، أبداً.

- مهما يكن، لا يهم - قالت- أنا من رأي نيكول: يجب العيش كما نرغب.

- لست واثقاً بأنها تفكر هكذا فعلاً. وأنت نفسك قلت: هذا مؤسف!

- قلت ذلك ككلام فارغ.

انحنت عليه وقبّلته.

- أحبك كما أنت.

- وكيف أنا؟

ابتسمت:

- هل تريد الإطراء؟ حسناً! إن ما أثارني في العام 1960 – ولا يزال سارياً – هو: كيف كنت تهب نفسك للآخرين وفي الوقت ذاته

كنت حاضراً لذاتك. كذلك انتباهك للأمور. بالقرب منك، يغدو لكل شيء أهمية، كما أنك مرح. وأقسم لك بأنك بقيت شاباً، أكثر شباباً من كل من أعرف الناس. أنت لم تضيّع شيئاً.

- هل أعجبك إلى هذا الحد؟

كان يبتسم هو أيضاً، لكنه كان يعلم جيداً بأنه فقد شيئاً ما، تلك الشعلة، ذلك النسغ الذي يسميه الإيطاليون بكلمة جميلة جداً: la stamina . أفرغ كأسه. لهذا السبب كان دون شك يسعى كثيراً إلى دفء الكحول المبهج: كانت تقول نيكول. ولكن ماذا بقي لنا ونحن في هذه السنّ؟ لمس لثته، بالكاد يظهر. ولكن قليلاً، إذا لم يتوصل طبيب الأسنان لإنقاذ هذا السنّ الذي يدعم جسره، فلا حلّ آخر سوى طقم الأسنان. يا له من رعب! لم يعد يتمنى نيل الإعجاب ولكن على الأقل حين يُنظر إليه، يمكن التخيل أنه كان ينال الإعجاب. يتمنى ألاّ يتحول إلى كائن لاجنسي كلياً. بالكاد كان قد بدأ يعتاد على وضعه كإنسان بالغ. هاهو يستعجل كي يصبح عجوزاً مسنّاً. أليس كذلك!

- هل تتضايق نيكول أيضاً من التقدم في السنّ؟

- أقل مني على ما أعتقد.

- هل خاب أملها لعدم الذهاب إلى روستوف؟

- قليلاً.

نيكول التي لاتقهر، قال لنفسه بحنان. الطاقة نفسها والتعطش نفسه كما كانت في العشرين. لولاها لاكتفى بالتسكع في شوارع موسكو، والثرثرة هنا وهناك، والجلوس على المقاعد. ربما كانت هذه الطريقة أفضل للدخول في جو المدينة. لكنه لو قال لها ذلك لكان أحزنها، وهذا ما لايريده مقابل أي شيء في العالم.

- إنها الخامسة! تنتظرنا في الخامسة - قالت ماشا- لنستعجل.

وغادرا الشقة على جناح السرعة.

....

كانت شقة ماشا تروق كثيراً لنيكول. الساحة كئيبة، الدرج قذر، المصعد الحديدي الصدئ يعلق في معظم الأحيان. لكن الغرف الثلاث الصغيرة - واحدة لكل شخص - كانت منسّقة بشكل ممتاز. بعض الصور، نسخ عن لوحات منتقاة بعناية، سجادات صغيرة أحضرها يوري من آسيا، أغراض جمعتها ماشا خلال طفولتها الجوّالة.

أثناء نزولها الدرج، انتاب نيكول فجأة حنين إلى شقتها وإلى أثاثها وأغراضها الخاصة بها.

رأتها من جديد كما تركتها في آخر صباح وفوق طاولتها باقة ورد كبيرة نضرة وبسيطة شبيهة بأوراق الخس. لا ترى وروداً هنا، ومنذ وصولها منذ عشرة أيام لم تسمع موسيقا. كان ذلك بمثابة حرمان جسدي تقريباً. انعطفت عند زاوية الشارع وغذت السير في الجادّة الكبرى المؤدية إلى الفندق. في باريس كانت تعرف كل دكاكين شارع راسباي، كثيرة هي الوجوه التي تألفها، الكل كان يتحدث إليها. هؤلاء هنا لا يعنون لها شيئاً. لماذا تجد نفسها بعيدة جداً عن حياتها؟ إنه يوم جميل من حزيران. الأشجار في قمة فتنتها، الحمائم تهدل في سواقي حبوب الطلع الزاغب الراكد على طول الأرصفة. كانت النديفات البيضاء تتطاير حول نيكول، تدخل إلى أنفها، إلى فمها وتعلق في شعرها وتصيبها بالدوار. كانت تتطاير في المكتبة في بعد الظهيرة تلك، وتعلق في شعرها عندما قالت وداعاً لجسدها بطريقة ما. في الماضي كانت هناك إشارات. كان انعكاس صورتها في المرآة وفي الصور قد ذوى، لكنها ماتزال تتعرف إلى نفسها بهذه الصورة. حين كانت تثرثر مع أصدقاء، كانوا

رجالاً وهي تشعر بأنها امرأة. ثم هذا الصبي الغريب الرائع الجمال الذي وصل مع أندريه، شدّ على يدها بتهذيب غافل، وشيء ما انقلب. كان بالنسبة إليها رجلاً، شاباً وجذاباً، وكانت بالنسبة إليه كائناً لاجنس له، مثل عجوز في الثمانين. لم تُشفَ قط من هذه النظرة، توقفت عن التزامن مع جسدها، أضحى جثماناً غريباً، ثوبَ تنكرٍ موجع. ربما استغرق ذلك التحول وقتاً أطول بقليلٍ، لكن ذاكرتها كانت تكثفه داخل تلك الصورة: عينان مخمليتان تشيحان النظر عنها بلامبالاة. مذ ذاك باتت في السرير مثل الجليد. على الإنسان أن يحب نفسه قليلاً كي يُعجب أحدهم بين ذراعيه. لم يفهمها أندريه، لكنه استسلم شيئاً فشيئاً لبرودتها. تعاودها تلك الذكرى كل صيف، في الموعد نفسه، لكن منذ زمن طويل لم تعد تجرحها. هذا الحنين الربيعي الحزين الذي أيقظته في داخلها رقصة حبات الطلع كانت تتلقاه عادة بكل رضى. تذكار زمن كانت روعة الأيام تخفي فيه وعوداً. اليوم، كانت تشعر بأنها متوترة وسقيمة في الوقت ذاته. غير مرتاحة مع ذاتها. لماذا؟ سألت نفسها.

حين صارت في غرفتها جلست عند حافة النافذة. شاهدت السيارات المتسارعة داخل النفق كي تعود وتظهر في الجانب الآخر من شارع غوركي: "أظن أنني سئمت قليلاً"، قالت لنفسها. لم تكن تجد الكثير من الروعة في موسكو. حتى لو سئمت قليلاً فهذا ليس بالأمر الخطير. كانوا سيذهبون إلى لينينغراد ويشاهدون بسكوف ونوفغورود. تناولت كتاباً. عادة، كي تتخلص من كآبتها، كان يكفيها أن تفسرها لنفسها. لكن كلمة سأم لم تشفع لها، استمر شعورها بالضيق. "هذه الغرفة كئيبة"، قالت لنفسها. "كئيبة"، "غرفة"، مامعنى ذلك؟ عندما أخبرها فيليب بزواجه، لا انسجام الوسائد الرائع ولا فتنة زهور الياقوتية المكحّلة ولا جمال لوحة نيكولا دوستاييل، كل ذلك لم يخفف عنها. مع ذلك، في الأوقات العادية مثل الآن، كان يكفي لون فرح أو شكل أنيق أو غرض مبهج كي يحرّك حبها للحياة. أما هنا، لاشيء. لا منظر الشارع ولا الجدران ولا المباني كانت تواسيها. مماذا؟ "أندريه!" قالت لنفسها. "أراه كل الوقت ولاأراه أبداً." في العام 1963 كانت ماشا

منشغلة بعملها. هذه السنة لم تكن تتركهما دقيقة واحدة. من ناحيتها، كان ذلك طبيعياً. لكن أندريه، ألايرغب إذاً بالبقاء وحيداً مع نيكول؟ هل تغيّر إلى هذا الحد؟ في السابق ومنذ زمن طويل، طويل جداً، هو من كان أكثر شغفاً. وهي لم تكن ناضجة للحب، والحب يستدعي افتقاداً، انفطار قلب، التعويض عن شيء ما. بالنسبة إليه، كانت طفولته القاسية، وجفاء أمه، وفشل حبه مع كلير. هي على العكس. كان أهلها قد دللوها، ولم يكن الحب قضية حياتها الكبرى. كانت ترغب بأن تصبح شخصاً مهماً. بعد ممارسة الحب، كانت هي أول من تتملص خارج السرير. كان يحاول أن يتمسك بها في حضنه هامساً: "لاتذهبي، هذا فطام". كانت تستسلم في أغلب الأوقات وهي على مضض قليلاً. فيما بعد، طوال حياتهما الطويلة، كانت الحاجة إليه والفرح الذي قدّمه لها يزدادان باطراد. اليوم يستحيل القول مَن مِن الاثنين متعلق بالآخر أكثر. هما متلاصقان مثل توأمين سياميين: هو حياتي وأنا حياته. ومع ذلك ها نحن. لم يكن يتألم قط من عدم رؤيتي لوحدي. هل أصاب

مشاعره الفتور؟ يحدث ذلك عند التقدم في العمر، اللامبالاة تستولي عليك. لم يتأثر كثيراً لموت أخته كما في الماضي عند موت والده. هل أتحدث معه بالأمر؟ ربما سيحزنه ذلك. وضعت كتابها وتمددت فوق السرير. كان غداءً لذيذاً جداً، الكثير من الفودكا، استولى عليها النعاس.

"أين أنا؟ من أكون؟". في كل صباح، حتى قبل أن تفتح عينيها، كانت تتعرف على سريرها وغرفتها. ولكن في بعض الأحيان، عندما كانت تنام بعد الظهر، كان يراودها عند يقظتها شعور بتلك الدهشة الطفولية. "لماذا أنا أكون أنا؟" كأن وعيها المنبعث من الليل على نحو لايمكن تسميته، يتردد قبل أن يتجسد ثانية. ماكان يدهشها، - مثل طفل حين يعي هويته الخاصة - أن تلقى نفسها في قلب حياتها وليس في قلب حياة أخرى. بأية مصادفة؟ كان من الممكن ألا تكون قد ولدت، حينئذ لن يكون هناك سؤال. "كان من الممكن أن أكون واحدة أخرى، ولكن ستكون حينذلك تلك الأخرى هي التي تتساءل عن نفسها." كان يدوّخها الإحساس من وجودها الطارئ، وفي

الوقت ذاته واجبها الوجودي المطابق بالزمان والمكان مع تاريخها. نيكول، ستون عاماً، أستاذة متقاعدة. يحزنها تصديق هذا. تذكر أول وظيفة، أول صيف، الأوراق الميتة التي كانت تئز تحت قدميها في الخريف البروفنسالي. يوم التقاعد ذاك – بعيداً عنها ما يعادل مرتين أو أكثر تقريباً مما عاشته - كان يلوح لها غير واقعي، مثل الموت ذاته. وقد أتى. كانت تفكر أحياناً بحنين بذلك الباب الذي لن تتجاوزه مرة أخرى، بالممرات الملمّعة، بهرولات وضحكات لن تسمعها أبداً بعد الآن. كانت قد عبرت خطوطاً أخرى إنما أكثر ضبابية، أما هذه فقد كانت واضحة وضوح ستارة حديدية. "أنا على الضفة الأخرى". نهضت وأعادت تسريح شعرها. كان وزنها يزداد بوضوح. كم هو مزعج ألا يكون لديها ميزان. إنها الخامسة والنصف. لماذا لم يعد بعد؟ مع أنه يعرف بأنها تمقت الانتظار، ولكن ما إن يصل حتى يغمر الدفء قلبها وتنسى بأنها انتظرته.

- لم نجد سيارة أجرة، أتينا مشياً على الأقدام.

- لكن لابأس، قالت.

- عملنا جيداً، قال أندريه.

- وشربت بعض كؤوس الفودكا؟

كانت تلحظ دون خطأ هذا العيب في اللفظ، وذاك التردد البسيط في الحركات، مما يشير إلى أن أندريه قد شرب قليلاً. لم تصبح إشارات ظاهرة بعد، كانت تسميها: عوارض مسبقة.

- لديك علامات العوارض المسبقة، أضافت.

- شربت القليل من الفودكا، ولكن ليس لدي عوارض مسبقة.

لم تلح. لم تكن تعكر صفوه عن طيب خاطر، لكنها كانت تخاف على صحته. ضغطه عال قليلاً. كانت تستيقظ جافلة أحياناً:" إنه يعرض نفسه لخطر سرطان الرئة، لأزمة قلبية، لسكتة دماغية.

- انظري، توازن لاعيب فيه.

أمسك بماشا من خصرها وجعلها تدور وهو يدندن لحن فالس. من الغريب أن تراه مع امرأة أخرى. صحيح أن لديها عيناه وذقنه، لكن نيكول كانت تنسى أحياناً أن ماشا ابنته. كان أندريه يحدث ماشا بالكلمات والابتسامات اللطيفة التي كان يقولها لنيكول في شبابهما. شيئاً فشيئاً، كانا قد تبنيا أحدهما تجاه الآخر لهجة من الفظاظة الحميمية، وصارت حركاتهما تقارب الجفاء. خطأ مَن هذا؟ خطأي بالتأكيد، فكّرت بحسرة قليلاً. مغالاة في حسن التربية، رصانة شديدة، كسيحة تقريباً. هو أول من قرر التحدث بصيغة المفرد، وكان الإفراط في لطفها يزعجه. شيئاً فشيئاً، عادت إلى تحفظها القديم. زوجان عجوزان يلعبان دور العاشقين، كان سيبدو الأمر مضحكاً. في هذه الأثناء، كانت تشعر على نحو غامض بالغيرة من تواطئه مع ماشا، وتلوم نفسها لأنها لم تعرف كيف تحتفظ من علاقاتها مع أندريه بتلك العذوبة اليانعة. عادت من جديد إلى تزمتها الذي لم تتمكن من التغلب عليه كلياً لأنها لم

تتقبل كلياً وضعها كامرأة. مع ذلك لم يكن ليتمكن أي رجل من مساعدتها على الانسجام مع نفسها مثل أندريه.

- هل تحبين الرقص؟ سألت.

- مع راقص جيد، أعشق ذلك.

- أنا لم أعرف قط.

- هكذا، لماذا؟

- ذلك لأن شريك الرقص هو الذي يقودني. كنت حمقاء حين كنت شابة. فيما بعد كان قد فات الأوان.

- أنا أحب أن يقودني أحد، قالت ماشا. هذا مريح.

- شرط أن يقودك إلى حيث تريدين الذهاب.

قالت نيكول وهي تبتسم لها برقّة.

كان يندر أن تتعاطف مع امرأة. تلميذاتها، نعم. طفلات، مراهقات، كان بإمكانها أن تأمل

بأنهن لن يشبهن الجيل الأكبر منهن. أما البالغات من نوع إيرين، فكنّ يمارسن "مهنتهن كنساء" باستعراض صاخب. كأنها مهنة! أما الأكبر سناً، فكنّ يرجعن نيكول بالذاكرة إلى عصيانها الطفولي، يذكّرنها بوالدتها. "الفتاة غير قادرة." لن تصبح مستكشفة ولا قائدة طائرة ولا قبطان مهما طال الزمن. فتاة تعني: موسلين، أورغاندي، أيادي الأم البالغة النعومة، عجينة ساعديها المترخرخة، عطرها العالق على جلدي. كانت تحلم لنيكول بزواج محظوظ، لآلئ، فراء. وبدأ النضال. "الفتاة قادرة"، أكملت دراستها، أقسمت على معارضة قدرها، كانت ستكتب أطروحة مدويّة، وتحصل على منصب أستاذة في السوربون، وثبت أن عقل المرأة يعادل عقل الرجل. لاشيء من كل هذا حصل. أخذت دروساً وكافحت داخل حركات أنصار النساء لكن، مثل الأخريات، أولاء اللواتي لم تكن تحبهن – استسلمت واستهلكها زوجها وابنها وبيتها -. لم تكن ماشا بالتأكيد تدع أحد يستهلكها، مع ذلك، كانت تتقبل أنوثتها بيسر: دون شك لأنها تعيش

منذ كان عمرها خمسة عشر عاماً في بلاد ليس للنساء فيها عقدة الدونية. ظاهرياً، لم تكن ماشا تتصور نفسها أدنى من أي كائن.

- من يأخذ الآخر إلى العشاء؟ أين وفي أية ساعة؟ قالت نيكول.

- حجزت طاولة في السابعة والنصف، في باركو - قالت ماشا - أمامنا وقت كافٍ للقيام بجولة صغيرة قبل ذلك. إنه وقت جميل.

- هيا لنقم بجولة، قالت نيكول.

غادرتها كآبتها. جاء أندريه إلى هنا كي يرى ماشا: كان من الطبيعي أن يستفيد أقصى ما أمكنه من حضوره. راحت تتخيل بمرح الأمسية التي سيقضونها هم الثلاثة.

....

افتتن أندريه بالفندق الذي نزلوا فيه في لينينغراد. ممرات طويلة تصطف على جوانبها أبواب رمادية لؤلؤية، تعلوها نوافذ زجاجية بيضاوية الشكل، تؤطرها ضفائر من الزهور، وتنسدل عليها ستائر حريرية وردية أو خضراء أو زرقاء، بحسب الطابق. داخل الغرفة مخدع تحجبه ستارة، وأثاث قديم يرق القلب له: طاولة مكتب ضخمة من المرمر المزيف، وكنبة من الجلد الأسود، وطاولة مغطاة بسجادة لها أهداب. ثريات بذوائب كريستالية كانت تضيء

غرفة الطعام حيث تجد فتاة من الرخام نصف عارية تسوّي – أو ترفع- ثوبها وهي تبتسم بغنج.

- الخدمة بطيئة، مثل موسكو! - قالت نيكول - لحسن الحظ، الفرقة الموسيقية ليست صاخبة كثيراً.

- ويأخذون وقتهم.

قال أندريه وهو يتابع بنظره نادلاً كان يقترب من طاولة جانبية لأواني السفرة، وضع عليها كأساً وبقي هناك يتأملها بشرود. الكل كانت حركاتهم مترددة ومضطربة، وكانت بلا شك تثير سخط الزبائن المستعجلين. البناؤون، عمال الحفر الذين كان يشاهدهم يعملون في الشوارع، الموظفون والبائعون، يعطون أيضاً انطباعاً بعدم الاكتراث. مع ذلك، لم تكن هذه البلاد مأهولة بالكسالى. ألم ينالوا في بعض المجالات نجاحات خارقة؟ من دون أدنى شك، كان العلماء والتقنيون يتلقون تأهيلاً خاصاً، لديهم ذهنية مختلفة.

- آه، هاهو الحساب، قالت ماشا.

خرجوا. كم هو رائع نور الساعة العاشرة.! عند الظهر، كانت ألوان القصور مكسوفة بنور الشمس. الآن، كان بريق ألوان الأزرق والأخضر والأحمر يرتعش برقة تحت الشمس الشاحبة.

- إنها مدينة بديعة، قالت نيكول.

بديعة حقاً، وأنت في زلاجة تحت روعة وأبهة الزخرفة الإيطالية، وأي مرح هذا بالأخص بوجود شباب على طول نهر نيفا الأبيض المزرق، يمشون زمراً ويغنون.

- ومع هذا، تريدين الذهاب إلى بسكوف و نوفغورود.

- هناك وقت لكل شيء، قالت ماشا.

هذا صحيح، ولكن بالنسبة له، كان يفضل البقاء عشرة أيام هنا. لينينغراد، بيتروغراد، سان بطرسبرغ. كان يود لو يحيط بكل شيء، لا بل - وهو حلم مستحيل - أن يحيط به في الوقت نفسه. المدينة المحاصرة ذات يوم شتائي، الرجال

والنســاء المتعثــرون فــوق الــثلج، والــذين كــانوا يسقطون دون أن يعـاودوا النهـوض أبـداً، الجثـث التـي كانـت تسحب فوق الأرض الجليديـة، مشـهد نيفسـكي مغطـاة بالجثـث، الرجـال المتراكضـون، الرصاصات التي تئز، البحارة الصاعدون لاقتحام القصـر الشـتوي. لينـين، تروتسـكي. ألـيس هنـاك وسيلة لإظهار نسخة من ملحمة مراهقته الكبرى، النائيـة فـي البعد حينـذاك، والشـديدة القـرب اليوم وهو يطأ اليوم بقدميه الأمـاكن نفسـها التـي جرت فوقها الأحداث؟ ظل الإطار ثابتاً علـى حالـه، لكنـه لـم يكن يساعد علـى إعادة النـاس والأحداث إلـى الحيـاة، علـى العكس. نجح المؤرخون جزئياً فـي إحيائه، ولكن لمتابعته كان يلزم التخلـي عن العالم الحاضر، والانغلاق داخل صمت أحد المكاتب، وحيداً أمـام كتابك. كانـت كثافـة الواقـع وثقلـه تدفع سرابات الماضي بعيداً، ويستحيل كتابته فوق هذه الحجـارة. لكن لينينغراد كانـت باقيـة، هذا المسـاء فـي ليلـة بيضـاء جميلـة. فـي العـام 1963، جاؤوا في شهر آب، كانـت الشمس تغيـب. اليوم لـم تكن تغيـب. إنـه العيـد. فـوق الأرصـفة صـبيان وبنـات

يرقصـون علـى وقـع موسـيقا غيتـار. وآخـرون يعزفون علـى الغيتـار وهـم جالسـون علـى مقاعـد حديقة آذار المهفهفة بالليلك، ليلك بعناقيده الـوافرة الشـبيهة بليلـك حـدائق فرنسـا، ليلـك يابـاني أكثـر بساطة برائحته المبهّرة. جلسوا على مقعد. هؤلاء الشـباب مـع غيتـاراتهم، مـن يكونـون؟ طـلاب، موظفون، عمال؟ تراجع عن سؤال ذلك لماشـا. كانـت فـي أغلب الأوقات لاتعرف الإجابة علـى أسـئلته، وهـذا ماكـان يكـدّرها. كانـت كمصـدر للمعلومــات تخيــب أملــه قلــيلاً. ربمــا كــانوا يرتــابون بهــا بســبب أصــلها الأجنبــي، أو أن المجتمـع هنـا طبقـيّ مثـل أي مكـان آخـر. كانـت تجهـل كـل شـيء عـن حيـاة العمـال والفلاحـين، وكـذلك عن الجهود العلميـة والتقنيـة الهائلـة التـي تمنى أندريه أن يعرف عنها ومضات.

- في ليلتي البيضاء الأولى، كان عمري خمسة عشـر عامـاً - قالـت ماشـا- كنـت سـاخطة. لـم أكـن أفهـم كيف بوسع والديّ البقاء في غاية الهدوء فـي ذلـك اليوم. نعم، فكّرت كم هو مخيف التقدم في السنّ.

- لم يعد هذا رأيك، قالت نيكول.

- أنا مرتاحة مع نفسي كثيراً- كما لم أكن قط - قالت ماشا- هل تتأسفين على شبابك؟

- لا، قالت نيكول.

ابتسمت لأندريه.

- بما أن الآخرين يشيخون في الوقت ذاته الذي تكبرين فيه.

"ليلتي البيضاء الأولى"، قال أندريه لنفسه مردداً. (انتابه ضيق). هذه الليلة الجميلة السعيدة، لم تكن تخصّه، لم يكن بوسعه إلا حضورها. لم تكن له: إنهم يضحكون ويغنون وهو يشعر بنفسه مقصياً: سائح فقط. لم يحب هذا الوضع أبداً، لكن في النهاية، في البلاد التي تكون السياحة صناعة وطنية، يكون التجول هو الوسيلة الوحيدة للانخراط فيها. في شرفات المقاهي الإيطالية، أو في حانات لندن، كان زبوناً بين آخرين. لكن لقهوة الإكسبرسو نفس الطعم في فمه وفم الرومانيين. هنا يلزم معرفة الناس من خلال

العمـل، ويعمـل معهـم. كـان مقصـياً مـن أوقـات فراغهم لأنـه كـان مقصياً من عملهم. عاطل عن العمـل. لاأحـد فـي هـذه الحديقـة كـان عـاطلاً عـن العمل، هو ونيكول فقط.

لاأحد أيضـاً كـان بسـنهما. يـالهم مـن فتيـة، كلهم! هو كـان كذلك. يـذكر الطعـم الحـار والعذب الذي كـان للحيـاة آنـذاك. كانـت تلـك الليلـة تخصّـهم وهم يبتسمون للمستقبل. ما الحاضر دون مستقبل، حتى في قلب عطر الليلك وطراوة أول منتصف الليـل؟ فكّـر للحظـة: هـذا حلـم، سـوف أسـتيقظ وأسـتعيد جسـدي، عمـري عشـرون عامـاً. لا، أنـا رجل بالغ، مسنّ، عجوز تقريباً. راح يتطلـع إليهم بـذهول حاسـد: لمـاذا لسـت مـنهم؟ كيـف يمكـن أن يحدث لي هذا، أنا بالذات؟

عـادوا مـن الإرميتـاج مشـياً علـى الأقـدام حيـث أمضـوا سـاعتين. كانـت هـذه هـي زيـارتهم الثالثـة هذه السـنة. شـاهدوا كل مـا تمنـوا مشـاهدته مـرة ثانيـة. كـانوا سيذهبون فـي اليـوم التـالي إلـى بسـكوف، كـي يـزوروا بيـت بوشـكين، الريـف

جميل جداً كما تقول ماشا، ونيكول كانت مبتهجة جداً لفكرة استنشاق رائحة العشب. كانت لينينغراد مدينة في غاية الجمال، لكن المرء يختنق فيها. أخذت المفتاح الذي كانت تمدّه لها مراقبة الطابق التي سلّمت ماشا كلمة: مكتب السياحة الداخلية يدعوها عاجلاً.

- هل سيكون هناك تعقيدات أيضاً؟ قالت نيكول.

- يتعلق الأمر ببعض التفاصيل التي يتوجب تسويتها، قال أندريه.

تفاؤله الذي لا شفاء منه! استغرق في قواعد لغته الروسية ونيكول بسطت جريدتها "لومانيته".

كانت بحاجة إلى هذه الرحلة بالسيارة، وإلى المناظر الطبيعية والهواء المنعش وكل جديد. الإرميتاج وسموكني والقصور والأبنية، كانت تعرفها عن ظهر قلب، ولا ترغب بقضاء ثلاثة أيام أخرى هنا.

دفعت ماشا الباب: "الإذن مرفوض!"، قالت بصوت ساخط.

- توقعت ذلك، قالت لنفسها بتعب.

- تشاجرت مع رجل السياحة الداخلية لكن ليس بيده حيلة. تلقّى الأوامر، ياله من أمر مغيظ، إنهم يثيرون السخط.

- من تقصدين بـ"هم"؟ سأل أندريه.

- لا أعرف بالتحديد. لم يرد أن يقول لي شيئاً. قد تكون هناك تحركات لعصابات. أو ربما، لاشيء من هذا على الإطلاق.

لاحد له ذلك الاستنكار الذي شعرت به نيكول يتصاعد في داخلها. نفاذ الصبر أمام أقل معاكسة، والخوف من السأم، غدا الأمر عصابياً. إذاً، لنذهب من الغد إلى نوفغورود، لكن قد لايكون هناك أماكن في الفندق، لطالما استلزم الأمر التنسيق مسبقاً. كما قد تكون الإقامة في موسكو لانهاية لها. بسرعة، لأبتكر شيئاً.

- ماذا عن النزهة التي تحدثت عنها؟ ذلك الدير على الجزيرة؟

- سيكون ممنوعاً أيضاً.

- يمكنك دائماً المحاولة.

- آه، لا! قال أندريه. لن تعاد كل تلك الإجراءات المزعجة كي تسمعهم يجيبون مرة أخرى: لا. دعونا نبقى بكل بساطة هنا. وسأقول لك الحقيقة. ليس لدي أية رغبة بمشاهدة هذا الدير.

- لكن، لن نتكلم عن هذا بعد الآن، قالت نيكول.

ما إن تركوها حتى أطلقت العنان لغضبها: "ثلاثة أيام للضجر هنا!". فجأة، بدا لها كل شيء مضجراً: تلك الجادات المستقيمة الخطوط، الشوارع المملة، العشاءات اللانهائية على صوت الموسيقا، غرفة الفندق، كل الحياة هنا والنقاشات التي لا تنتهي بين ماشا وأندريه. هو كان يدافع عن الصينيين الذين تكرههم وتخشاهم، وينتقد سياسة التعايش السلمي الحتمية، وهي تدعمها. كانا يردّدان الكلام، أو يروي أندريه لماشا قصصاً تحفظها نيكول غيباً. حتى الآن، لا تراه بمفرده أبداً. أو حتى لفترة قصيرة جداً بحيث لا يمكن أن يدور بينهما حديث. هو ينكبّ على كتابه الروسي،

وهي على صحيفتها... أسندت جبينها على النافذة. هذه الكنيسة السوداء الضخمة والترابية الحمراء، كم هي قبيحة! "إذْنٌ مرفوض". لو أنها فقط تمكنت من النقاش، والقتال، لكن كل أمر كان متعلقاً بماشا التي تستسلم ربما بسهولة شديدة. هذه التبعية تثير الأعصاب. في البداية، كانت نيكول تستمتع بها، أما الآن، فقد غدا الأمر يثقل عليها. كانت في باريس تتمركز في وسط حياتها، تتخذ القرارات بنفسها. مع أندريه، أو بمفردها. هنا، كانت تصدر المبادرات والابتكارات عن واحدة غيرها، لم تكن سوى جزء من عالم ماشا. نظرت إلى كتبها، كانت قد أحضرت القليل منها فقط، تلك التي تهمها فعلاً وقد قرأتها في موسكو. عادت إلى النافذة. الساحة، الحديقة، الناس الجالسون على المقاعد، كان كل شيء يلوح كئيباً في نور بعد الظهر الباهت. بدا الزمن راكداً. - كانت ترغب أن تقول: هذا غير عادل- أمره رهيب، كيف له أن يمر بكل هذا السرعة وبطيئاً جداً في الوقت ذاته. كانت تعبر باب ثانوية بورج وهي فتية بعمر تلاميذها تقريباً، تتطلع بشفقة إلى المعلمين الكبار

في السن بشعرهم الشائب. هوب! أضحت معلّمة عجوز وأغلق باب الثانوية من جديد. لسنوات طويلة، كانت صفوفها توهمها بأن سنها لم يتغير. عند كل عودة في بداية العام، كانت ترى نفسها بنفس العمر الصغير، وهي تنسجم مع هذا الثبات. في خضم الزمن، كانت صخرة تتحطم عليها أمواج جديدة باستمرار، صخرة لاتتحرك، ولا تبلى. والآن يحملها المدّ، يحملها إلى أن تهوي في قلب الموت. تنقضي حياتها على نحو مأساوي. وفي هذه الأثناء، تقطر ساعة بعد ساعة، ودقيقة بعد دقيقة. دائما يجب الانتظار، كي يذوب السكر، كي تسكن الذكرى، كي يندمل الجرح، كي يتبدد الملل. قطيعة غريبة بين هذين الإيقاعين. تهرب مني أيامي مسرعة في كل يوم وأنا أذوي.

انصرفت عن النافذة، أي فراغ في داخلها، من حولها، على مدّ النظر! هذه السنة، كانت قد ساعدت فيليب في أبحاثه. عند الحد الذي وصل إليه، لم تعد تفيده بشيء. كما كان يعيش في مكان آخر. المطالعة اعتباطياً، دون هدف، تمضية وقت أكثر أهمية بالكاد من الكلمات المتقاطعة أو

لعبة الأخطاء السبعة. كانت تقول لنفسها:"سيكون لدي الوقت، وقتي كله ملكي، ياللحظ الجميل!" هذا ليس حظاً عندما لانجد شيئاً نقوم به، وعلى النحو ذاته أيقنت أن الفيض في أوقات الفراغ يفقرك. الفرح العارم غير المنتظر الذي كان يمنحه – فيما مضى- لدى خروجها في الصباح الباكر من منزلها أو عند خروجها من مترو الأنفاق، بريق أزرق بلون السماء فوق سطح قرميدي كان يفتت قلبها. حين كانت تمشي بخطى وئيدة في الشوارع يهرب منها. إن بريق الشمس المتخلل عبر ثقوب النافذة نحسّه بقوة أكبر من سطوعه الحارق حين نواجهه.

لم تحتمل السأم قط، وفي بعد الظهر ذاك، كانت تعاني منه إلى حد الاضطراب، لأنه كان يتخطى مستقبلها. سنوات من السأم إلى أن يأتي بعدها الموت. "لو كان لدي مشاريع فقط، لو كنت ملتزمة بعمل ما!" قالت لنفسها. فات الأوان. كان عليها تدارك الأمر في وقت أبكر. إنه خطؤها. ليست غلطتها وحدها. أندريه لم يساعدها. بطريقة مخاتلة، مارس الضغط عليها."عملت ما فيه

الحكايـة، اتركـي وظـائف التلاميـذ هـذه، تعـالي للنـــوم...ابقي قلـــيلاً فــــي الســـرير...تعالي للنزهة...سأصـطحبك إلـى السـينما." كـل حـالات ضعف الإرادة لدى نيكول كـان قد سحقها دون أن يدرك ذلك. " لـم يكن علـي سوى عدم الاستسلام لـه." قالـت لنفسـها. كانـت تستنبط أضـغاناً. ولكـن لأن لديها ضغينة تجاهه. لقد حسم الأمـر من دون حتـــى أن يناقشـــها: "لنبـــقَ هنـــا!" وخصوصـــاً خصوصـاً أنـه لـم يكن يقوم بـأدنى جهد كـي يلـزم ماشا حدها، لا بل لم تخطر الفكـرة علـى بالـه. هل هو متعلق بـي؟ فـي باريس نحن مرتبطـان بشبكة مـن العـادات الصـارمة بحيـث لاتتـرك مجـالاً لأي سؤال. ولكن، تحت هذا الدرع، ما الذي يدوم بيننـا ممـا هـو حقيقـي وحـيّ؟ عنـدما أدركُ مـن يكـون بالنسبة لـي فهذا لايفسـر مـن أكـون بالنسبة إليـه. سوف أتحدث إليه"، قررت. في موسكو، كان لدى ماشا ما يشغلها، لم يكونا مضطرين لإبقائها طوال الوقت معهمـا. ولكـن مـا نفـع تـدبير أحاديـث علـى انفراد إذا كـان هـو لا يرغـب بـذلك بشـكل تلقـائي؟ لن تحدثه. شرعت بكتابة رسالة إلى فيليب.

- هذه الكنيسة داخل الخدمة. هل ترغبان بالدخول؟ قالت ماشا.

- بالتأكيد، قالت نيكول. آه، يا له من نور ذهبي بديع.

فوق الجدران والأيقونسطانس، كانت الأيقونات تلتمع برقة، والظل نفسه كان يبدو مثل سيل ذهبي، لكن الرائحة كانت تجعل أندريه يشعر بالغثيان: رائحة البخور والشموع، عجائز مبهوتات يجرجرن أنفسهن راكعات على الأرض وهن يتمتمن، يسجدن ويقبلن البلاط. كان ذاك مغيظاً أكثر من الكنائس الكاثوليكية. ثمة صوت مخنخن كان ينبعث من الداخل في جهة اليسار. دنوا منه. بدا المشهد غريباً. حول كاهن أورثوذكسي له لحية سوداء حريرية طويلة ويلبس حُليه، رجال ونساء يحملون بين أذرعهم أطفالاً رضّع بثياب بيضاء يبكون. كان الكاهن يرشّ الرضّع بمرشة وهو يبسمل الصلوات. كان ليُظن أنها لعبة: الآباء يهدهدون الأطفال الزاعقين وهم يراوحون في مكانهم.

- عماد على التسلسل! - لم أرَ شيئاً كهذا من قبل - قالت ماشا.

- تعميد الأطفال، هل هو شائع؟

- عندما يكون لديهم أم عجوز مؤمنة لايريدون إحزانها.

- وهناك، ماهذا؟ قالت نيكول.

كان هناك صنايق مسندة إلى الجدران: نعوش فارغة...ستة منها كانت موضوعة على الأرض إلى جانب بعضها البعض، وداخل كل واحد منها ميت. كانت وجوههم مكشوفة، مشمّعة، وتحيط بها أربطة من تحت ذقونهم، تتشابه كلها.

- لنرحل من هنا، قالت نيكول.

- هل يخيفك ذلك؟

- قليلاً، وأنت لا؟

- لا.

موته الخاص، لم يكن ليتصوره دون اكتراث. كان يبدو له البقاء على قيد الحياة والاستمرار في العيش أصعب من الموت. موت الآخرين... صار سكراناً. عندما كان في الخامسة والعشرين ومات والده، انتحب. ومنذ سنتين دفن أخته التي كان يحبها كثيراً دون دمعة. وماذا عن والدته؟ فكرت ماشا بها في الوقت عينه الذي فكر بها هو.

- أريد حقاً أن أرى جدتي قبل أن تموت – قالت - هل ستحزن حين تموت؟

تردد: لاأعلم.

- لكنك تعبدها! - قالت نيكول بلهجة مستنكرة - أنا سأحزن، كما أنه سيكون لذلك أثر مضحك. لن يعود هناك أحد من الجيل السابق، سيدفع ذلك بنا درجة إلى الأمام.

عادوا بسيارة الأجرة إلى ساحة نيفسكي، وجلسوا في مقهى في الهواء الطلق.

طلب كأساً من الكونياك. لم يكن جيداً، لكنهم في المقهي لايقدّمون الفودكا. كان الكونياك أغلى بكثير، وذلك كي يثبطوا من عزيمة السكارى. في الواقع، الكثير من الناس كانوا يحضرون معهم زجاجة فودكا في جيوبهم.

- هل الجنازات الدينية كثيرة؟

- كلا، هذه على وجه الخصوص تكون لنساء عجائز يطلبن المرور بالكنيسة، أو يأخذن أمواتهن. ترددت ماشا.

- مع ذلك، دخلت ذات يوم أحد إلى كنيسة في موسكو ودُهشت. كان هناك عدد لا بأس به من الرجال في منتصف العمر، وحتى شباباً، أكثر بكثير من السابق.

- شيء مؤسف، قال أندريه.

- نعم.

- إذا كان الناس يرغبون بالإيمان بالسماء، فذلك لأنهم ما عادوا يؤمنون بشيء يذكر على

الأرض. هذا يعني أن سياسة الرفاهية التي بدؤوا بإتباعها هنا لم تكن بالسعادة التي تحدثت عنها.

- آه، الرفاهية! لا تبالغي - قالت ماشا- لم أنكر قط بأننا من الناحية الفكرية لسنا في فترة تراجع، أضافت.

- فترة ستدوم كم من الوقت؟

- لا أعرف. هناك شباب مثل فاسيلي ورفاقه مفعمون بالحماس، سوف يناضلون في سبيل اشتراكية لا تستبعد السعادة ولا الحرية.

- برنامج بديع، قال أندريه بتشاؤم.

- ألا تصدق هذا؟

- أنا لا أقول ذلك، ولكن في كل الأحوال، هذه الاشتراكية لن أشهدها.

نعم، كان لضيقه اسم، اسم لا يحبه لكنه كان مرغماً على استخدامه: خيبة الأمل. كان ينفر عموماً من المسافرين العائدين من الصين وكوبا والاتحاد السوفييتي أو حتى من الولايات المتحدة

الأميركيـة عنـدما يقولـون: "لقـد خـاب أملنـا". فقـد أخطـؤوا حـين تصـوروا مسـبقاً أفكـاراً دحضـتها الوقـائع فيمـا بعـد. كـان هـذا خطـأهم ولـيس خطـأ الواقـع. لكـن فـي نهايـة الأمـر، الكل أحسّ بالشـيء عينـه. ربمـا كـان الأمـر سيكون مختلفـاً لـو أنـه زار أراضـي سـيبيريا البكـر، والمـدن التـي يعمـل فيهـا العلمـاء. ولكـن فـي موسـكو ولينينغـراد، لـم يجـد مـا كان يتمناه. ما الذي كان يتمناه بالتحديد؟ كـان الأمـر غامضاً. في مطلق الأحوال، لم يعثر عليـه. بالتأكيد هنـاك فـرق شاسـع بـين الاتحـاد السـوفييتي والغـرب. عندما كان التقدم التقنـي فـي فرنسـا يعمل فقط علـى تعميق الهوّة بين أصحاب الامتيـازات والمستغلّين، كانـت البُنـى الاقتصـادية هنـا تعمـل حتـى يـأتي يـوم يستفيد فيه منها الجميع. سينتهي الأمر بالاشتراكية أن تغدو واقعـاً. ذات يـوم، سـوف تنتصـر فـي العـالم أجمع. كل ما هنالك أنها تمر الآن بفترة انحسـار – باستثناء الصـين ربمـا، مـع أن كـل مـا يعرفـه عنهـا كـان مريبـاً وغيـر مؤكـد -. هنـاك عبـور لفتـرة تراجع، سوف يخرجـون منهـا، لـيكن. الأمـر ممكـن ومحتمـل، لكـن أندريـه لـم يكـن يؤكـده قـط. بالنسـبة

للشباب، لم تكن هذه الفترة أسوأ من غيرها، ليست أسوأ من الفترة التي كان هو فيها في العشرين. هذه السنوات التي تشكل بالنسبة إليهم نقطة انطلاق لم تكن توصل بالنسبة إليه سوى إلى نتيجة واحدة: السقوط. في سنّه، القفزة التي ستتبع ربما، لن يشهدها. "الطريق الذي يؤدي إلى الخير أسوأ من الشر." يقول ماركس. كان شاباً، وأمامه أبدية خادعة، بوثبة واحدة قفز إلى آخر الطريق، بعد قليل لن تتبقى له القوة الكافية لتجاوز ما يسمّى تكاليف التاريخ المزيفة، ويظنها عالية على نحو رهيب. كان يتكل على التاريخ كي يبرّر حياته. لم يعد يتكل عليه بعد الآن.

مضى الوقت بالإجمال سريعاً، يومان ممتعان في نوفغورود، وبعد أقل من أسبوع ستعود إلى باريس وإلى بيتها وحياتها، ولأندريه. كان يبتسم لها:

- كنت ترغبين بالذهاب إلى الداتشا[11]. حسناً! لقد رتبت الأمر، قال.

- ماشا، يا لها من فتاة لطيفة!

- إنه بيت إحدى الصديقات، على بعد ثلاثين كيلومتراً. سيصحبنا يوري بالسيارة. ليس هذا الأحد، بل الذي يليه.

---

[11] الداتشا: بيت ريفي شعبي. م.

- الذي يليه؟ ولكن، ألسنا راحلين في يوم الثلاثاء؟

- ولكن لا، نيكول. تعلمين جيداً بأننا قررنا التمديد لعشرة أيام.

- قررتَ هذا دون حتى أن تقول لي كلمة واحدة! قالت نيكول.

فجأة، تصاعدت أبخرة حمراء داخل رأسها، وضباب أحمر أمام عينيها، وشيء أحمر داخل حنجرتها يصرخ: إنه يسخر مني! ولا حتى كلمة واحدة!

- ولكن بلى، تحدثنا معاً بذلك. لم أكن لأتخذ القرار قط قبل أن أكلمك. وكنت موافقة.

- أنت تكذب!

- كان ذلك في اليوم الذي شربتُ فيه قليلاً من الفودكا عند ماشا، حين تصورتِ أن لدي أعراضاً مسبقة. تعشّينا في باكو، وعند عودتنا بعد أن أصبحنا بمفردنا، حدثتك عن ذلك.

- لم تقل شيئاً بتاتاً. أنت تعلم ذلك جيداً. أقسم لك أنني كنت لأظهر استيائي. قررتَ من دوني والآن أنت تكذب.

- لقد نسيتِ، طيب، هل سبق لي ووضعتك أمام أمر واقع؟

- ثمة بداية لكل شيء. وزيادة على ذلك، أنت تكذب. هذه ليست المرة الأولى.

لم يكن يكذب قط في الماضي، ولكن هذه السنة، كذب مرتين بشأن أمور تافهة. اعتذر ضاحكاً: "إنه العمر، غدوت كسولاً، كان سيطول الحديث وأنا أوضح فكرتي، لهذا اختصرت الكلام." ووعد ألا يتكرر ذلك، لكنه تكرر. واليوم كان الأمر أكثر جدية من قصة زجاجة أفرغها أو زيارة لطبيب مشعوذ. كانت نادراً، بل نادراً جداً، ما تخص أندريه بسخطها. لكن سخطها غدا الآن إعصاراً يحملها بعيداً عنه وعن نفسها آلاف الكيلومترات، إلى خارج حياتها وخارج جسدها، إلى عزلة مخيفة جليدية وحارقة في الوقت نفسه...

أقبل أندريه ينظر إلى الوجه المتغيّر، العنيد، الشفاه المزمومة، هذا الوجه الذي كان يرعبه كثيراً فيما مضى ومايزال يبلبله. قلتُ لها ونسيتْ. في ذلك الوقت، كانت ماتزال مسرورة هنا. عشرة أيام أكثر أو أقل، هذا لايهم كثيراً. كانت قد بدأت تسأم شيئاً فشيئاً، تشتاق إلى فيليب، أنا لم أعد أرضيها، لم أرضِها قط. قلت لها في هذه الغرفة، بعد العشاء في باكو. لكنها مثل كل الناس الذين يظنون أن ذاكرتهم لاتخيب، لاتقبل أبداً إمكانية خطئها. مع ذلك، كانت تعلم جيداً أنه لايستطيع أن يقرر شيئاً دون استشارتها، وخلال هذه الرحلة، حقق كل رغباتها. عشرة أيام إضافية في موسكو ليست بالأمر المضني.

- اسمعي، عشرة أيام إضافية هنا ليست بالمأساة.

كانت عينا نيكول تقدحان من السخط، لا بل من الحقد.

- أنا ضجرة! ألا تفهم بأنني ضجرة!

- آه، أعرف هذا. تشتاقين إلى فيليب وإلى أصدقائك. أعرف تماماً بأنني لاأرضيكِ.

- اذهب من هنا، إليكَ عني. لم أعد أحتمل رؤيتك! ارحل.

- ويوري وماشا، هما بانتظارنا في الأسفل.

- قل لهما أنه لديّ صداع. قل لهما أي شيء.

أعاد إغلاق الباب مرتبكاً. "تسأم إلى هذا الحد معي!" كما أنها لم تستنكر عندما قال لها: "أنا لم أرضكِ قط." لم يكن متمسكاً جداً بالبقاء هنا، لكن ماشا كانت متمسكة ولايريد أن يحزنها. كان يجدر بنيكول أن تتفهم...لكن بمجرد التفكير بمشاجرته مع نيكول كاد يغمى عليه. كل خلاف فيما بينهما لايحتمله. في النهاية، سوف يعود حالاً بعد العشاء، وسوف توافق على الاستماع إليه. هل ثمة احتمال أن يكون قد أهمل الكلام معها فعلاً؟ لا، إنه يتذكر نفسه جالساً على سريره بمنامته بينما كانتِ تمشط شعرها. ماذا أجابت؟ "لمِ لا؟"

أو شيئاً من هذا القبيل. لاأقرر شيئاً على الإطلاق من دونها. هي تعرف ذلك جيداً.

ما إن أعيد إغلاق الباب حتى خنقتها عَبَراتها. كأنها فقدته للأبد من دون أن يموت. في أقل من دقيقة يمكن للمقصلة أن تفصل رأساً، في أقل من دقيقة، عبارة واحدة قطعت صلاتها مع أندريه. كيف استطاعت أن تتخيل أنهما ملتحمان أحدهما بالآخر؟ بسبب ماضيهما، كانت تعتبره خطيباً يتعلق بها بقدر ما تتعلق به. لكننا نتغيّر. هو تغيّر. ليكذب، هذا ليس أسوأ ما في الأمر، كان يكذب من الجبن كطفل يخشى التوبيخ. الأسوأ هو أنه اتخذ القرار مع ماشا دون أن يحسب لها حساباً، ونسيها كلياً، غافلاً عن استشارتها ولا حتى إعلامها. هل لديه الشجاعة للنظر إلى الأشياء مواجهة؟ خلال ثلاثة أسابيع، لم يسعَ قط لتدبير حديث لنا على انفراد، كل ابتساماته، كل حنانه، يتوجه به إلى ماشا. ماذا أريد وماذا لاأريد، يستخف به. "لنبقَ إذاً في موسكو. لنبقَ في لينيغراد." إنه مرتاح هنا، ويتخذ خطيبة يرتاح إليها أيضاً. هذا لم يعد حباً. أنا اعتياد فحسب.

لم تكن تحتمل ذاتها داخل هذه الغرفة. أعادت رتوش زينة وجهها ونزلت إلى الشارع. مشت. لطالما فعلت ذلك كي تهدّئ مخاوفها وثورات غضبها، كي تطرد عنها صوراً. غير أنها لم تعد في العشرين، ولاحتى في الخمسين، انتابها التعب فوراً. جلست فوق مقعد في حديقة صغيرة، قبالة بركة تطفو عليها إوزة التمّ العراقية. بعض الناس كانوا يحدّقون في وجهها لدى عبورهم، لاشك أن وجهها كان يبدو مذعوراً، أو ببساطة، يتعرفون إليها كغريبة.

كان أندريه حينذاك يتعشى مع يوري وماشا دون شك، في مطعم المحطة البحرية على ضفة نهر موسكوفا. كيف رمَوها؟ ربما كانت الأمسية بالنسبة له ذكرى بغيضة، ولكن هذا ليس مؤكداً، كان لديه مهارة التعلق باللحظات الآنية، ومحو كل ما يكدّره. كان ينساها، يقصيها، يفكر بأنه سيعود ليراها قد هدأت. كان هكذا على الدوام. في اللحظة التي يكون فيها سعيداً، عليها أن تكون سعيدة. في الواقع، لم يكن هناك تناسب بين حياتيهما. لقد نال كل ما كان يتمناه: بيت، أولاد،

أوقــات فــراغ، مســرّات، صـــداقات وبعـــض الاضطرابات. في حين أنها تخلت عن كل طموح شبابها بسببه. لـم يشـأ قـط أن يفهـم ذلـك. بسـببه، أضـحت تلـك المرأة التـي لا تعـرف كيـف تشـغل الوقـت المتبقـي لهـا فـي الحيـاة. رجـل آخـر كـان ليدفعها إلى العمل. كان ليقدّم القدوة. أما هو، فقد صرفها عنه. ألفت نفسها فارغة اليدين، ليس لديها شـيء فـي العـالم سـواه، وفجـأة، لـم يعـد هـو نفسـه لـديها. تنــاقض فظيــع مـن الغضــب، مولـود مـن الحــب، ويقتلــه الحــب. كـل لحظــة تسـتذكر وجــه أندريه وصوته، تزكي نار ضغينة كانت تجتاحها، كمـا هـو الحـال أثنـاء تلـك الأمـراض عنـدما نختلـق ألمنــا الخــاص، كــل شــهيق يمــزق رئتيــك لكنــك مضطر للتنفس. "والآن، ماذا بعد؟" سـألت نفسـها ببلاهة وهي تعود إلى الفندق. ما من مفر. سوف يتابعان العيش معاً، سوف تخفي مخالبها، العديد من الأزواج يعيشون عيشة خاملة على هذا النحو في استكانة وبالتراضي. داخل العزلة، أنا وحيدة. إلـى جانـب أندريـه، أنـا وحيـدة. أنـا مقتنعـة. دفعـت بـاب الغرفـة. فـوق السـرير، كانـت منامـة أندريـه،

وعلى الأرض بابوجه، وعلى الكومودينو، غليونه وعلبة التبغ. خلال لحظة أضحى حاضراً بشكل جارح، كأنه أُبعد عنها بسبب مرض أو نفي وتراه الآن من جديد في أشيائه المتروكة. بلغت الدموع مآقيها. تشنجت. من داخل حقيبة دوائها تناولت أنبوب المنوّم وابتلعت حبتين واندست في فراشها. "أنا وحيدة!" صعقها القلق. القلق من الوجود أكثر قسوة بكثير من الموت. وحيدة مثل حجر وسط الصحراء، محكوم بأن يدرك لا جدوى وجوده. كان كل جسدها المتشنج والمنكمش يشكل صرخة صامتة. ثم تركت نفسها تنساق داخل ملاءاتها وغرقت في النوم.

عندما استيقظت في الصباح، كان ينام متقوقعاً، مسنداً يده إلى الجدار. أشاحت ببصرها عنه. ولا أي اندفاع نحوه. كان قلبها جليدياً وكئيباً مثل كنيسة صغيرة خارج الخدمة لايلمع فيها أي بصيص. البابوج، الغليون، عادت أشياء مشاعرها، ماعادت تذكّرها بإنسان غالٍ غائب. ماعادت سوى امتداد للشخص الغريب المقيم في

الغرفة نفسها. "آه، أكرهه"، قالت لنفسها بيأس. "قَتَلَ الحب الذي لدي تجاهه!"

كانت تروح وتجيء داخل الغرفة، صامتة، عدائية. لقد اصطدم مراراً في شبابهما بهذا الوجه الغاضب: "أنا لاأقبل......لا يجدر أن...." كانت هذه الصرامة آنذاك تجمّده. كان أكبر منها سناً، لكنه كان ينظر طويلاً إلى كل البالغين كأنهم كبار. اليوم، عيل صبره منها. "إلى متى ستستمر بالحرد في وجهي؟" كانت تبالغ. فعل كل شيء كي يرضيها أثناء هذه الرحلة. وكل حياتهما. بقي في باريس بسببها. حتى لو نسيت حديثهما، كان بإمكانها أن تصدقه قليلاً. كأنها اغتنمت الفرصة. أية أحقاد كانت تغذّي؟ هل تأسف لعدم زواجها من رجل أكثر براعة؟ لم تكن تحبه حقيقة إذاً. لو كانت تحبه حقاً لما سئمت معه. في بداية زواجهما، عانى من فتورها، لكنه كان يفكر أنه سوف يأتي يوم و... ظن أن هذا اليوم قد جاء. كان حريّ به الظن أنه لم يأتِ. كان ينتظر من التقدم في السن عزاء وحيداً: فيليب متزوج، هي متقاعدة، ستكون نيكول له وحده بكاملها.

ولكن إذا كانت لاتحبه، إذا كان لا يرضيها، وهي قد تشبثت بضغائنها، فسوف يكون حلم العزلة الثنائية هذا عرضة للخطر حقاً. سوف تكون سنيّ الشيخوخة كئيبة، مثل الناس الذين لا يبقون معاً إلا لأنهم، بعد تجاوز سن معينة، لا يمكنهم الانفصال. لا، لايستطيع تصديق ذلك. هل هذه هي المرأة التي كانت ابتسامتها حتى البارحة تشع حناناً، هي نفسها التي تزم شفتيها الآن بتقطيبة مخيفة؟

- يا له من وجه عبوس!

لم ترد بشيء، واستولى عليه الغضب هو أيضاً.

- أتعلمين، إذا أردتِ الرحيل قبلي، أنا لا أحتجزك.

- هذه نيتي بالفعل.

أحسّ بصدمة. لم يعتقد بأنها ستأخذ عرضه على محمل الجدّ. حسناً! فلترحل، فكّر. على الأقل ستتجلي الأمور، لم أعد أريد الخداع، أنا بالنسبة لها عادة قديمة، فهي لم تهِم بي عشقاً قط. أدركتُ ذلك في

الماضي ونسيته. أتذكر هذا وأحيط قلبي بدرع. أدعها تفعل ماتشاء، وأنا كذلك. فكّر بحديقة فيلنوف برائحة شجر سَروها والورود التي تسحقها الشمس. بعد عودتي من موسكو، سوف أغادر باريس. سأذهب للسكن في بروفانس، أنا في غاية الغباء كي أضحي بنفسي من أجلها. كل واحد ملزم بنفسه.

صحيح إذاً ما يزعمون، لايستطيعون التحدث إلى بعضهم البعض، لاأحد يفهم الآخر، كانت نيكول تتساءل؟ كانت تنظر إلى أندريه الجالس على ديوان ماشا وبيده كأس من الفودكا وتفكر بأنه كان يجدر بها مراجعة كل ماضيهما. لقد عاشا متقاربين، كل واحد ملزم بنفسه، يجهل أحدهما الآخر ولم يختلطا، شفّافين.

عند مغادرته غرفتهما هذا الصباح بالتحديد، نظر إليها أندريه بهيئة مترددة. كان يودّ أن يشرع ببداية شرح. فتحت الباب، لحق بها، وداخل سيارة الأجرة لزما الصمت. لايمكن شرح أي شيء. هذا الغضب، هذا الألم، هذا الانقباض

في قلبه، تتحطم فيه كل الكلمات. هناك الكثير من الإهمال، الكثير من اللامبالاة!

أمام ماشا طوال النهار، مثّلا دوريهما بكل تهذيب. كيف سأخبرها بأنني راحلة قبل أندريه؟

كان يشرب الكأس الرابعة من الفودكا، حرّاً بنفسه. حين كان شاباً، كان الكحول يجعله شاعرياً وفاتناً. كان يهذر قليلاً إنما دون تلعثم أو ترنح. الآن، منذ متى؟ صار يرتبك بكلامه وتتعثر حركاته، الطبيب قال له إن الكحول والتبغ مضرّان لصحته. كان يزدرد موته على جرعات صغيرة. من جديد، خوفها الذي صار لاذعاً أكثر من غضبها، دفعها إلى العناد. "إنه يشرب كثيراً." زمّت شفتيها. هو حر، بوسعه قتل نفسه على نار خفيفة إذا كان ذلك يرضيه. في كل الأحوال، سوف ينتهي بهما الأمر إلى الموت، وفي بعض الحالات يكون الموت مثل الحياة تقريباً. ثمة شيء من الشيخوخة في الطريقة التي يحاول فيها الإصرار على التحدث إلى ماشا بالروسية. كانت تهزأ من لهجته، كانا يتفاهمان مثل لصّين وقعا على كنز ثمين. كان يجسّ خدّه بإصبعه

للحظات بهيئة قلقة. ونيكول تريد الصراخ: "لسنا كهلين إلى هذه الدرجة، ليس بعد، لا!" لقد تغيّر، لاحظت ذلك أثناء هذه الرحلة. ربما وهي لاتراه، كانت تراه كل الوقت. لم يعد راغباً سوى بالانسياق للحياة. في الماضي لم يكن يحب سوى الحياة. لكن الحياة بالنسبة إليه كانت ابتكاراً مستمراً، مغامرة ينقاد إليها، مغامرة مفرحة، غير متوقعة. الآن، كان يوحي إليها بأنه يعيش حياة خاملة: هذه هي الشيخوخة، لاأريدها.

شيء ما تزعزع داخل رأسها. كمن تلقى صدمة على رأسه واضطربت رؤياه، وراح يرى للعالم صورتين وبارتفاعين متغايرين، دون أن يتمكن من تحديد العليا من السفلى. الصورتان اللتان لديها عن حياتها الماضية وحياتها الآنيّة لاتتطابقان. ثمّة خلل في مكان ما. كانت هذه اللحظة تكذّبها. هذا ليس هو، هذه ليست هي، هذا المشهد يجري في مكان آخر...لا، للأسف! الماضي هو الذي كان سراباً، هذا يحدث دائماً. كم من نساء خُدعن بحياتهن، طوال حياتهن، لم تكن حياتها ماترويه لنفسها. ولأن أندريه كان

انفعالياً وعاطفياً، ظنت بأنه يحبها بشغف. في الحقيقة، كان ينساها ما إن تغيب عن ناظريه، أي شخص ثالث بينهما لم يكن ليزعجه. بالنسبة إليها، كان حضور أندريه فرحاً لاينضب، بعكس حضورها بالنسبة إليه، لابل ربما أثقل عليها وأثقلت عليه دائماً.

- ماشا، هناك مسألة علينا تسويتها: مسألة رحيلي. أترين، لدي التزامات في باريس.

- آه، بلا مشاكل، قال أندريه. التفت ناحية ابنته.

- تناكدني لأنها تدّعي بأنني قررت إطالة إقامتنا هنا من دون استشارتها. في الواقع، تعلمين جيداً بأنني حدّثتها بالأمر.

- بالتأكيد، قالت ماشا بانفعال. أول شيء قاله لي حين اقترحت أن تمكثوا لوقت أطول كان: سأحدّث نيكول بالأمر.

هذا التواطؤ بينهما!

- لـم يفعـل، نسـي أن يقـول لـي وهـو يكذب عليّ.

لا يزال رأسها يغلي من الغضب. ولكن للمرة الأولى في حياتها لا تلقي الرعب في قلبه. لقد أخطأت بشكل جذري.

كانت ماشا تحاول إصلاح الأمر، تجيب بجفاء، وتنظر إليه بملامة وهو يسكب لنفسه الفودكا. مناكِدة، هذا ما كانت تؤول إليه. اجترع الفودكا دفعة واحدة على الطريقة الروسية، بتحدٍّ.

- يمكنك فعلاً أن تثمل، الأمر سيان عندي كلياً، قالت بصوت جليدي.

- أرجوكِ، لاتعودي فوراً إلى باريس، ذلك يحزنني، قالت ماشا.

- أنتِ، ربما، ولكن هو لا.

- لا، أنا لا.

- أترين؟ حول هذه النقطة نحن على الأقل متفقان. سيكون بوسعه الاستمتاع بعشر زجاجات من الفودكا دون أن يحتجّ أحد.

- بالأخص أنه لاشيء ممتع في رؤية وجهك العبوس. أظن أن انفصالاً قصيراً سيفيدنا نحن الاثنان. لدى عودتي من موسكو، سأنزل إلى فيلنوف. ولاأطلب منك اللحاق بي.

- اطمئن، لن أتبعكَ إلى هناك.

نهضت.

- لم نعد نحتمل رؤية أحدنا للآخر. دعنا لا نلتقي بعد الآن.

مشت باتجاه الباب. أمسكت ماشا بذراعها.

- هذا سخف. عودي. أفهمينا مرادكِ.

- لم نعد نرغب بذلك، لاأنا ولاهو.

انصفق الباب.

- كـان يجـدر بـك منعهـا مـن الـذهاب، قالت ماشا.

- حِاولت التفاهم معها هذا الصباح. لاتريد الإصغاء. ركبها الشيطان.

- صحيح أنك تشرب زيادة قليلاً، قالت ماشا.

- حسن، أعيدي هذه الزجاجة.

وضـعت الزجاجـة وعـادت لـتجلس قبالـة أندريـه بهيئة محتارة.

- أنتما الاثنان، شربتما كميـة لا بـأس بهـا فـي باكو. ربما نسيت أن تحدثها وظننت بأنك فعلت.

- أو أنهـا هـي لـم تسـتوعب الحـديث لأنهـا نامت فوراً بعد ذلك وهي ثملة إلى حد ما.

- هذا ممكن أيضاً. ولكن في كل الأحـوال، أنتما الاثنان نيتكما سليمة، لماذا تغضبان إذاً؟

- أنا لا أنكر نيّتها الصادقة. هي من يدّعي بأنني أكذب. ليس لها الحق.

ابتسمت ماشا.

- لم يكن يخيّل إلي قط أنه بإمكانكما أن تتناوشا هكذا... مثل الأطفال.

- بعد أن تجاوزنا الستين؟ لكن، أتعلمين، البالغون وحتى العجائز، من هم؟ أطفال منفوخون بالعمر.

كانت هذه المشاجرة بغيضة بالنسبة إليه بالتحديد، بسبب سنّهما. بعد كل هذا الوفاق وراءهما تقوم نيكول بخذلانه. كي تشك بصدقه، لاشك أنها لم تمنحه قط كل ثقتها واحترامها. كما تراقب دائماً الأقداح التي كان يشربها. كل هذا، كي تستمتع بمضايقتي. لم يكن يريد التفكير بها بعد الآن.

- أعطني صحيفة البرافدا ودعينا نعمل.

- الآن؟

- لست ثملاً. قال بشيء من العدائية.

شرع بترجمة مقال. نهضت بعد لحظة.

- سوف أتصل كي أعرف إذا كانت نيكول عادت سالمة.

- لماذا لاتكون قد عادت؟

- كانت تبدو ساخطة جداً.

- في كل الأحوال، أنا لن أكلمها.

نيكول لم تعد، ولا حتى في منتصف الليل، بعد ساعة. أو من المحتمل أنها عادت لكنها لاترد على الهاتف.

- سوف أصعد معك، قالت ماشا عندما توقفت سيارة الأجرة أمام الفندق. أريد أن أتأكد أنها هنا.

أعطت مراقبة الطابق المفتاح لأندريه. نيكول لم تكن هناك إذاً. اعتصر قلبه من الصمت والفراغ داخل الغرفة. تبدّدت أبخرة الفودكا ومعها غضبه.

- أين يمكن أن تكون؟

لم يكن يحب أن يتصورها هائمة عبر هذه المدينة النائمة التي كانت كل مقاهيها مغلقة.

- ثمة مكان مفتوح، قد تكون هناك. البار الوطني.

- لنذهب إلى هناك، قال.

كانت نيكول جالسة قبالة كأس من الويسكي، مخسوفة الثغر، ثابتة البصر. أراد أندريه أن يأخذها من كتفيها ويضمّها. لكنها عند أول كلمة قد يقولها ستغيّر سحنتها وتقسو. اقترب وابتسم بحياء. تغيّر وجهها وتصلّب.

- ماذا تفعلان هنا؟

كانت ثملة والكلمات تتعثر في فمها.

- جئنا لأخذك بالسيارة.

وضع يده على كتفها برقّة.

- هيا، لنشرب كأساً معاً. لنتصالح.

- لا أرغب بتاتاً. سوف أعود ساعة أريد.

- سننتظرك، قال.

- لا، سأعود مشياً على الأقدام بمفردي. أرى أنكما قد بالغتما باللحاق بي حتى هنا.

- دعيني أوصلك الآن، قالت ماشا، من فضلك، افعلي هذا من أجل خاطري. وإلاّ في الحقيقة، سوف نضطر للانتظار حتى الساعة الثانية، وأنا أستيقظ باكراً غداً صباحاً.

ترّددت نيكول.

- حسن، ولكن من أجلك بالتأكيد. ليس من أجل أحد سواكِ، قالت.

رشح الضوء عبر أجفانها. وتركتها مغمضة. كان رأسها ثقيلاً، وحزينة حتى الموت. لماذا ثملت؟ كانت تشعر بالخجل. ما إن عادت حتى رمت ملابسها أينما اتفق وانهارت. غرقت في ظلام حالك، مائع وخانق، من المازوت. وهذا الصباح، كانت تطفو فوقه بالكاد. فتحت عينيها. كان يجلس على كرسي عند أسفل سريرها ينظر إليها باسماً.

- يا حبيبتي، لن نستمر هكذا.

عـاد فجـأة هـو، كانــت تتعـرف إليــه، فــي الماضـي، فـي الحاضـر، صـورة واحـدة. لكـن تلـك الشفرة الحديدية كانت باقيـة داخل صـدرها. كانـت شـفتاها ترتعشـان. هل يـزداد تشـنجها، هل تسـتمر فـي عنادهـا، وتغـرق فـي ظلمـات الليل، أو تحـاول التقاط هذه اليد الممدودة. كان يتكلم بصوت ثابـت، مهدّئ، كانت تحب صوته. لاأحد يمكنه التأكد من ذاكرته. كان يقول. ربما لم يتكلم، لكن نيتـه كانـت صـادقة عنـدما قـال بأنـه تحـدث عـن ذلـك. لـم تكـن متأكدة من شيء هي الأخرى. كلّفت نفسها.

- على كل حال، ربما حدّثتني، لقد نسيتُ. ذلك يدهشني، لكن هذا ليس مستحيلاً.

- في كل الأحوال، ليس هناك أي داعٍ للغضب.

هشّت ابتسامة.

- ولا أي داعٍ، قالت.

دنا منها، وضع ذراعيه حول كتفيها، قبّلهـا علــى صــدغها. تعلّقــت بــه، أسـندت خــدّها علــى سترته، وشرعت تبكي. دموع ساخنة عذبـة تنزلـق

على خدّها. أية راحة! كم هو متعب أن تحقد على شخص تحبه. راح يقول لها كلمات قديمة: "يا صغيرتي، يا حبيبتي..."

- كنت حمقاء.

- ولكن أنا طائش، كان يجدر بي أن أكلمكِ من جديد. كان علي أن أدرك أنك تسأمين.

- آه، لاأسأم كثيراً. لقد بالغتُ. "أسأم لأنني لاأراك لوحدك". لم تعبر هذه الكلمات شفتيها، كان ذلك ليكون بمثابة توبيخ أو توسّل. نهضت، ذهبت إلى غرفة الحمّام.

- اسمعي - قال عندما عادت إلى الغرفة - إذا أردت الرحيل قبلي، ارحلي. ولكن إذا ما رافقتك ستحزن ماشا كثيراً. البارحة مساءً اقترحت عليّ هذا. إنما لن يكون ذلك لائقاً. أريدك أن تبقي، أضاف.

- بالتأكيد، سوف أبقى. قالت.

كانت محاصرة، مفرّغة من غضبها، عزلاء. لم يكن لديها القوة للقيام بهذا العمل

العدائي ـ واللامبرر له إلى حد كبير - ماالذي كان ينتظرها في باريس؟

- انظري، أنا أيضاً بدأت أرى الوقت طويلاً، قال. العيش كسيّاح في موسكو، هذا ليس ممتعاً طوال الوقت.

- في كل الأحوال، كما كنت تقول، عشرة أيام ليست بمأساة، قالت.

داخل الممر، أمسكت بذراعه. كانا متصالحين، لكنها كانت تحسّ بالحاجة إلى الاطمئنان على وجودها.

....

في عتمة السينما، كان أندريه ينظر إلى جانب وجه نيكول. منذ مشاجرتهما من يومين وهي تبدو له حزينة قليلاً. أو هل كان هو من يلقي عليها بظلال حزنه الخاص؟ لم تعد الأمور بينهما كسابق عهدها تماماً. ربما كانت نادمة لأنها وافقت على البقاء عشرة أيام إضافية في موسكو؟ أو هو من كان مُهاناً جداً أكثر مما كان يظن بسبب سوء ظنها وغضبها. لم يستطع أن يولي انتباهه لقصة هذه المرأة، قائدة الطائرة. راح يقلّب في رأسه أفكاراً كئيبة. وماشا التي تعتقد بأن التقدم في السنّ يعني ازدياد المرء

غنيً! الكثير من الناس يعتقدون هذا. السنوات تمنح النبيذ شذاه، والأثاث الخشبي رونقه العتيق، والبشر الخبرة والحكمة. كل لحظة سوف تطوقها وتثبتها اللحظة التي تليها وتهيئ مستقبلاً أكثر كمالاً منها. الخيبات نفسها، تُسترد في النهاية. "كل لحظة صمت، هي فرصة ثمرة ناضجة." لم يقع في هذا الفخ قط، لكنه لم يكن يرى الحياة أيضاً على طريقة مونتينيٌّ، كتعاقب للموت. الرضيع ليس موت المضغة، ولا الطفل موت للرضيع. لم يرَ نيكول تموت قط وتنبعث حيّة. لا بل كان يرفض فكرة فيتزجيرالد: "الحياة تقدّم متوالٍ للانحطاط". لم يعد جسده كشاب في العشرين، ذاكرته تضعف قليلاً، لكنه لم يكن يحسب نفسه عاجزاً. ونيكول لم تكن هكذا بالتأكيد. إلى عهد قريب، كان مقتنعاً كل الاقتناع بأنهما سيكونان على حالهما في سن الثمانين. لم يعد هذا ظنّه. هذا التفاؤل الذي لا براء منه والذي كانت تضحك له نيكول، أضحى أقل رسوخاً من السابق. هناك تلك الأسنان التي يبصقها في حلمه، طقم الأسنان الذي يهدّده. عند الأفق، الشيخوخة بانتظاره. هل كان يأمل على الأقل عدم

زوال حبهما أبداً؟ كان يُخيَّل إليه أن نيكول كلما تقدمت في السنّ سوف تزداد تعلقاً به. وهاهو شيء ما قد يكون قد تفكك بينهما. كيف له أن يفرّق في حركاتهما، في كلامهما، بين ماهو ليس سوى تكرار روتيني للماضي وماهو جديد وحيّ؟ بالنسبة له، كانت مشاعره نحو نيكول قد بقيت فتيّة كعهد أيامهما الأولى. ولكن هي؟ ما من كلمات يراها ليسألها ذلك.

- اختاري كتباً، قالت ماشا لنيكول. كانا كي يسليّاها يبديان حماسة مزعجة قليلاً. البارحة فيلم جميل، ولكن فيلم بعد الظهر ذاك وقصة المرأة قائدة الطائرة كان مضجراً. المطالعة، بالتأكيد، وهل هناك شيء آخر يمكن القيام به؟

كانت ماشا تعمل بالترجمة، وأندريه يحاول بمساعدة قاموس فكّ رموز صحيفة البرافدا. تأملت المجموعة المرصوفة فوق الرف. روايات، قصص، مذكّرات، حكايا: كانت قد قرأتها كلها، أو تكاد. عدا عن النصوص التي شرحتها في الصف، ماذا تتذكر؟ "مانون ليسكو" التي درستها جملة جملة في سنة تخرجها، لم تعد

تذكر منها بدقة أي حدث. غير أن هذه الصفحات التي لم تكن قادرة على استذكارها، كان يعتريها شعور بالكسل من جرّاء التفكير بإعادة قراءتها. إعادة القراءة تضجرها، فالمرء يتذكّر تدريجياً، أو على الأقل يُهيَّأ له ذلك. نحرم من متعة القراءة. هذا التآزر الحر مع الكاتب هو بمثابة إبداع تقريباً. كانت تحتفظ برغبة الاطّلاع على مؤلفات عصرها، وتبقى على اطّلاع على كل ما هو جديد. لكن هذه المؤلفات القديمة التي كوّنتها كما هي الآن وما تزال تفعل، ماذا يمكن أن تقدّم لها؟

- تحتارين بالاختيار؟ قال أندريه.

- شيء محيّر.

تناولت كتاباً لبروست[12]. مع بروست، كان الأمر مختلفاً، إنها تحفظ عباراته عن ظهر قلبها، تنتظرها وتستعيدها مثلما يستعيد الكاتب سوناتة فانتويّ[13] الصغيرة بسعادة. أما اليوم،

---

[12] بروست: الكاتب الفرنسي الشهير مارسيل بروست صاحب رواية "في البحث عن الزمن الضائع". م.

[13] سوناتة ڤانتوي: مقطوعة موسيقية خيالية للكمان والبيانو ذكرت عدة مرات في سياق رواية بروست: في (البحث عن الزمن الضائع). وتمثل بالنسبة للكاتب المثالية الجمالية التي تنشط قوى الذاكرة وتجعل الإنسان الذي يسمعها واعياً أكثر لذاته. م.

فكان يصعب عليها التركيز. كانت تفكّر: لم يعد الأمر مماثلاً. نظرت إلى أندريه. الحضور، ماهو؟ ذلك التاريخ الطويل الممتد منتهياً وراءها، مألوفاً جداً ومنسياً جداً، مثل النصوص الحبيسة بين هذه الصفحات. في باريس، حتى وهو بعيد عنها عدة كيلومترات، لا بل في الأوقات التي كانت تراه فيها مبتعداً، وهي منحنية على النافذة، كان حاضراً في قلبها مثل أكثر الأشياء بداهة. كان خياله يتضاءل ويتوارى عند زاوية الشارع، راسماً في كل خطوة طريق عودته. هذا المكان الخالي ظاهرياً، هو حقل قوة يعيدها على نحو جارف إلى ذاتها وإلى مكانها الطبيعي أيضاً. كان هذا اليقين أقوى بكثير من جسد من لحم ودم. اليوم، أندريه هنا، بذاته، في متناول يدها، لكن كأن هناك طبقة عازلة بينهما، طبقة لامرئية، غير محسوسة، طبقة من الصمت. هل كان أندريه يعي ذلك؟ لا، دون شك. كان ليجيب: "ولكن بلى، الأمر شبيه بما مضى، ما الذي تغيّر؟". حدثت مشاجرات في

حياتهما إنما لأسباب جدّية. عندما كان لأحدهما مغامرة، فيما يتعلق بتعليم فيليب، كانا يقومان بتصفية حساباتهما بالعنف، إنما سريعاً وبشكل نهائي. هذه المرة، كان الأمر مثل زوبعة دخانية، دخان بلا نار، وبسبب عدم تماسكها نفسه لم تتبدد كليّاً. يجدر القول أيضاً أن مصالحاتهما في الماضي في السرير كانت جارفة، في الرغبة والهياج والمتعة تحترق الملامات اللاجدوى منها ويستعيد أحدهما الآخر وجهاً لوجه، جديدين وفرحين. اليوم أضحى هذا الملاذ يخذلهما. والحالة هذه كانت نيكول تماحك. لقد كانت مسؤولة عن خلافهما في جزء غير يسير. ظنت بأنه يكذب (صحيح، لماذا كان يكذب عليها من قبل؟ هل كان ذلك في سبيل أشياء صغيرة؟)، كان هذا خطأه. كان يجدر به أن يكلمها مرة ثانية بدل اعتبار المسألة قد سويّت في دقيقتين. هي شديدة الارتياب، لكن هو مقصّر. واستمر على ذلك دون أن يعبأ بماذا كان يدور في خلد نيكول. هل تيبّس؟ تحت وطأة الغضب فكرت عنه بأشياء كثيرة غير صحيحة.

شيخوخي، لا، يعيش عيشة خاملة، لا. صار أقل إحساساً ربما. حتماً نحن نضعف: الكثير من الحروب والمذابح والكوارث والمصائب والموتى. أنا نفسي، عندما ستموت مانون، هل سأبكي؟ "لن يكون هناك أحد ليناديني يا طفلتي الصغيرة"، كانت تقول بحزن. ولكن هذا تفكير أنانيّ. هل كانت ستحزن لعدم رؤية مانون؟ بقيت هشّة الإحساس من خلال أندريه وفيليب. ماذا عن الآخرين؟ حتى تجاه فيليب وأندريه لم تكن تشعر في هذه اللحظة بأي اندفاع.

زوجان يستمران لأنهما بدأا. هل هذا هو المستقَبل الذي ينتظرهما؟ من أجل الصداقة والمودة، وليس من أجل أي سبب حقيقي للعيش معاً. هل سيكون الأمر على هذا الشكل؟ كان هناك أسباب حقيقية في البداية. هي التي كانت تثور ما إن يتطاول عليها أي صبيّ بأقل استعلاء. كان قد غلبها بنوع من السذاجة التي لم تصادفها لدى أحد، أمام مظهره المرتاع تصبح عزلاء، عندما كان يتنهد ويقول: "أنت مخطئة تماماً!".

بسبب رعاية أمها الفائقة وإهمال والدها، كان هناك ذلك الجرح في داخلها، أنها امرأة. كانت فكرة التمدّد تحت رجل في يوم من الأيام تثير ثائرتها. بفضل رقّة أندريه وحنانه صالحها مع جنسها. تلقت المتعة بكل سرور. حتى أنها بعد بضع سنوات، تمنت طفلاً وغمرتها الأمومة. نعم، هو حقاً من كانت تحتاج إليه وليس غيره. وهو، لماذا أحبها مع أنها كانت بغيضة بسبب عدائيتها عموماً؟ قد تكون القسوة والصرامة الأموميتان اللتان تثقلان عليه ضروريتان في الوقت نفسه، وقد عثر عليهما لدى نيكول.

ساعدته إلى حد ما أن يغدو راشداً. على كل حال، لقد كانت دائماً تشعر بأن أية امرأة أخرى لم تكن لتلائمه أفضل منها. هل كانت مخطئة؟ من ناحيتها، هل كانت سترضى أكثر مع رجل آخر؟ أسئلة لا طائل منها. المشكلة الوحيدة هي أن تعرف ما الذي بقي داخلهما اليوم؟ لم تكن تعرف ذلك.

كانت ماشا منشغلة بعد تلك الظهيرة. عهدت بنيكول وأندريه لسائق أجرة أعطته

تعليمات مفصّلة. نزلا من السيارة في ضاحية جاءا إليها قبل ثلاث سنوات عند مداخل موسكو. قرية حقيقية. سارا في شارع تحفّه منازل الفلاحين الخشبية القديمة.

- لا تمشِ بهذه السرعة، أريد التقاط صور، قالت نيكول.

قررت بغتة أنه كان من المؤسف عدم إحضار أي صورة عن رحلتهما، واستعارت آلة تصوير يوري. إن صح القول، لم تلتقط صوراً قط في حياتها. نظر إليها تصوب عدستها ناحية منزل خشبي. "ذلك لأنها تسأم معي"، فكّر. في سيارة الأجرة لم يجدا شيئاً ليقولاه، لكنهما لم يشعرا بالسوء إطلاقاً وهما معاً، هذا ما كان محزناً أكثر. عساه أصبح مضجراً، حتى أثناء عطلاتهما في فيلنوف، ما كانا يلتقيان قط أكثر من هنا. كانت مشبعة من حضوره. ربما كانت تسأم، هي أيضاً لم تكن مسليّة كثيراً. صوّرت منزلاً ثانياً وثالثاً. كان هناك أناس يثرثرون جالسين في الشمس على عتبات بيوتهم، كانوا ينظرون إليها باستياء، قال أحدهم شيئاً لم يفهمه أندريه لكنه يبدو غير مستحب.

- أعتقد أنهم لايريدون أن تلتقطي هذه الصور، قال.

- لماذا؟

- هذه المنازل الخشبية جميلة، لكنهم يجدونها بائسة ويرتابون فيكِ، كأجنبية سافلة، لأنها تريد نقل صور بؤسهم.

- حسن، سأتوقف، قالت.

حلّ الصمت بينهما.

في الحقيقة، أخطأ بتمديد هذه الإقامة. حتى بالنسبة إلى ماشا، إلى ماذا كان يقربه ذلك؟ في كل الأحوال، كانا سيفترقان لوقت طويل جداً: عامان، ثلاثة أعوام زيادة؟ هل كانا يرغبان حقاً بلقاء قريب؟ حين أراها باريس في العام 1960، واكتشف معها الاتحاد السوفييتي في العام 1963، كانت أياماً كالعيد. هذه المرة، لم يجد هذا المرح، فقط في البداية. كان يحب ماشا كثيراً وهي تبادله الحب، لكنهما كانا يريان العالم بطريقة شديدة الاختلاف، لاأحد منهما له مكانه

في حياة الآخر فعلياً. هذا الإحساس الشاعري الذي فتنه لدى وصوله، تبدّد شيئاً فشيئاً. كان من الحماقة معاكسة نيكول دون سبب مقبول، بسبب جملتين تبادلاها هذراً: "ليس لديكِ شيء يذكر تفعلينه في باريس – لاشيء."

- في الواقع، من الحماقة كان تمديد هذه الإقامة، قال.

- إذا كان هذا لايسرّك فعلاً، هذا غباء، قالت.

- هل لأنك نادمة؟

- نادمة إذا كنت أنت نادماً.

إذاً، هاهما يراوحان في مكانيهما. شيء ما علق في حوارهما، كان كل واحد يفهم الآخر بالعكس إلى حد ما. ألن ينتهي بهما الأمر إلى الخروج من هذا؟ لماذا اليوم وليس البارحة؟ لم يكن هناك سبب.

مرّا أمام رواق كنيسة، صوّرته نيكول. على بعد قليل منها عند أعلى الهضبة ترتفع كنيسة أخرى بهندستها المعمارية المعقدة. تطل

علـى نهـر موسـكوفا، ومـن ورائهـا يمكـن رؤيـة سـهل فسـيح وموسـكو فـي البعيـد. جلسـا فـوق العشب وتأملا المنظر.

"هانحن للمرة الأولى نكون وحدنا، لانجد شيئاً نقوله لبعضنا البعض، حتى لارغبـة لدينا فـي التحدث"، فكّرت نيكول بمرارة. ظننت بأن أندريـه سيتسـلى بالتقـاط صـور لموسـكو معهـا، كانـت البطاقات البريديـة سيئة جداً. لم يبالِ بذلك، لابل بـدا الأمـر مزعجـاً بالنسـبة إليـه. تمـددت علـى العشب، أغمضت عينيها، وفجأة غدا عمرها عشر سنوات وهـي مستلقية فوق مرج، فاحت بـالقرب مـن خـدّها رائحـة التـراب والعشـب. لمـاذا ذكـرى الطفولة تحرّك القلب كثيراً؟ لأن الزمن يتمـدد إلـى اللانهاية، وتتلاشـى الأمسية فـي الأقصـاء البعيـدة، والمستقبل لـه الأبديـة. "أعـرف مـا الـذي أفتقده فـي هذا البلد"، فكّـرت. باستثناء ليلـة فلاديمير لاشـيء أثّر بها بعمق، إذ لاشـيء أيقظ فـي داخلهـا أصـداء. اللحظات التـي حرّكت مشاعرها فـي حياتها، كانت علـى الـدوام لحظـات تسـتدعي شـيئاً مختلفـاً عـن اللحظـة نفسـها. كانـت تتـراءى لهـا مثـل تـذكار،

هاجس، تجسيد حلم، لوحة دبّت فيها الحياة، صورة واقعية بذاتها، خفية لايمكن بلوغها. ليس فقط لأنه لم يكن لها جذور في الإتحاد السوفييتي، فهي لم تحبها عن بعد كما أحبت إيطاليا أو اليونان. لهذا، حتى الأشياء الجميلة هنا، لم تكن أكثر مما هي عليه. بوسعها أن تنال إعجابها، لكنها لم تسحرها. هل بإمكان أندريه أن يفهمني؟ تساءلت. قالت لنفسها بكآبة إن هذا لايهمّها. ولكن مع ذلك، أن يكونا وحيدين كما تمنت بشدّة دون حتى أن يستغلا ذلك، بدا الأمر محزناً.

- أدركت للتو لماذا لاشيء في الاتحاد السوفييتي يحرّك فيّ الكثير، قالت.

- لماذا؟ قال.

كان حضوره قوياً جداً وشديد الاهتمام — مع كل الناس، ومعها زيادة - بحيث أنها اندهشت من نفسها لترددها بالحديث إليه. كان الأمر يسيراً، في دفء هذه النظرة، لو شرحت بصوت مسموع ما قالته لنفسها بهمس.

- بالمجمل، هذه الرحلة خيّبت أملنا نحن الاثنين قليلاً، قال.

- ليس أنت.

- بطريقة مختلفة، نعم، الكثير من الأشياء فاتتني. لم أعد متحمساً كما كنت لدى وصولي. سأكون سعيداً بالعودة إلى باريس.

نظر إليها بشيء من الملامة.

- على الرغم من أنني لست ضجراً، أنا لاأضجر أبداً حين أكون معكِ.

- وأنا كذلك معك.

- ولكن صرخت في وجهي، أنا ضجرة!

كان في صوتها حزن حقيقي. صرخت كلماتها أثناء الغضب وقد نسيتها. كان يبدو أنه أهين بعمق من هذه الكلمات. تردّدت ثم قالت:

- في الحقيقة، أنا أحب ماشا كثيراً، لكن الأمر مختلف حين أراك معها أو من دونها. الشيء

الذي أضجرني هو ألا أستطيع أن أكون معك وحدي أبداً. أنت، كان الأمر سياناً عندك، أما أنا فلا، أضافت بشيء من المرارة.

- ولكن، مرّت أوقات كثيرة كنا فيها بمفردنا.

- ليس كثيراً، وكنت منهمكاً بقواعد اللغة الروسية.

- لم يكن عليكِ سوى التحدث إلي.

- لم تكن ترغب بذلك.

- بالطبع أرغب! أرغب دائماً بالتحدث إليكِ.

أمعن في التفكير.

- هذا مضحك! وأنا من كنت أعتقد بأننا نرى بعضنا أكثر بكثير مما نفعل في باريس.

- ولكن دائماً مع ماشا.

- كان يبدو عليكِ أنك على وئام تام معها. لم يخطر على بالي أنها تثقل عليكِ.

- أنا على وئام معها، ولكن حين يتعلق الأمر بطرف ثالث بيننا، فالأمر ليس مشابهاً.

هشّ ابتسامة غريبة.

- هذا ما أفكر به مراراً عندما تصطحبين فيليب معنا في نهايات الأسبوع.

بقيت مرتبكة. صحيح، كانت في أغلب الأحيان تطلب من فيليب مرافقتهما ويبدو لها الأمر طبيعياً جداً حينذاك.

- الأمر مختلف جداً.

- لأنه ابني؟ مع هذا، هو طرف ثالث بيننا.

- لن يكون ذلك بعد الآن.

- هذا يحزنك كثيراً!

هل سيتشاجران من جديد؟

- لا يوجد أم تحب أن يتزوج ابنها. لكن لا تظن أنني منزعجة من ذلك.

صمتا. لا، لن يقعا في الصمت من جديد.

- لماذا لم تقل لي قط إن وجود فيليب أحياناً يضايقك؟

- لطالما عاتبتني لأنني استئثاري! كما أنني ماذا كنت سأكسب من حرمانك فيليب إذا كنت في كل الأحوال لا أكفيكِ.

- كيف هذا؟ أنت لاتكفيني؟

- آه، أنت سعيدة لأنني في حياتك، شرط أن يكون هناك شيء آخر: ابنكِ، أصدقاء، باريس...

- هذه حماقة ما تقوله هنا، قالت مندهشة. أنت أيضاً تحتاج إلى شيء آخر غيري.

- بإمكاني التخلي عن كل شيء إذا كنتِ معي. معك وحدك في الريف، سأكون سعيداً كل السعادة. قلتِ لي ذات يوم إنك ستموتين من الضجر هناك.

هل كان جديّا أكثر مما كانت تظن، التقاعد في فيلنوف؟

- أنت تفضّل الريف وأنا أفضّل باريس، لأن الإنسان يحب أماكن طفولته.

- ليس هذا هو السبب الحقيقي. لأنني لا أكفيكِ، وعندما قلت لكِ هذا في ذلك اليوم، لم تعترضي حتى.

تذكرت أنها كانت غاضبة، كان يصعب عليها دائماً وهي متوترة الأعصاب ومتشنجة أن تقتلع الكلمات اللازمة.

- كنت غاضبة. لم أكن سأقول لك عبارات حب. لكن لو كنت تظن بأنني لاأتعلق بك بقدر ما تتعلق بي، فأنت أحمق فعلاً.

ابتسمت بحنان. كان ما قالته صحيحاً: ماشا لم تتركهما قط.

- خلاصة القول – قال - حصل سوء تفاهم.

- نعم، كنت تظن بأنني أسأم معك في حين أنني كنت أسأم بسببك: هذا أكثر إطراء ممالأة.

- وأنا كنت سعيداً لاستحواذك كلياً، وأنت لم تدركي ذلك.

- ولكن، لماذا أساء أحدنا فهم الآخر إلى هذه الدرجة؟ سألت.

- خيبة أملنا جعلتنا في مزاج سيء. فضلاً عن أننا لم نرغب بالبوح بذلك.

- علينا دائماً البوح بكل شيء، لأنفسنا وللآخرين، قالت نيكول.

- هل تبوحين لي بكل شيء دائماً؟

تردّدت.

- تقريباً. وأنت؟

- تقريباً.

ضحكا معاً. لماذا كانا غير قادرين على العيش معاً في هذه الأيام الأخيرة؟ كان يبدو كل شيء من جديد مألوفاً جداً، سهلاً جداً.

- هناك شيء لم أقله لك وهو مهم – أردفت - منذ وصولي إلى موسكو، حدثت معي ضربة شيخوخة.

وعيتُ أنه بقي لـي وقت قصير جداً لأعيشـه. هذا يجعل أقل معاكسة غير محتملة. أنت لاتشعر بسنّك، أنا بلـى.

- آه، أشعر به – قال – لا بل أفكر فيه مراراً.

- صحيح؟ لكنك لا تتحدث عن ذلك أبداً.

- حتـى لا أحزنكِ. وأنت لا تتحدثين عن ذلك أيضاً.

للحظة لزما الصمت. لكنه لم يعد نفس الصمت. مجرْد استراحة من هذا الحديث الذي انعقد أخيراً والذي لن يتوقف بعد الآن.

- هل نعود؟

- لنعد. أمسك بذراعها.

لحسن الحظ أننا تمكنّا من التحدّث إلى بعضنا البعض – قالت - سوء التفاهم يصنع كرة ثلج ينتهي بها الأمر إلى إفساد كل ما بين الأزواج الذين لا يعرفون استخدام الكلمات.

- خفت أن يكون قد ضاع شيء بيننا.

- أنا أيضاً.

- ولكن في قرارة نفسي كان ذلك مستحيلاً، كنا سنتوصل إلى توضيح أفكارنا لا محالة.

- نعم، كان هذا حتمياً. في المرة القادمة، لن أخاف بعد الآن.

شدّ على ذراعها.

- لن يكون هناك مرة ثانية.

ربما يكون هناك مرة ثانية لكن لن تكون ذات أهمية. لن يتوه الواحد بعيداً عن الآخر. لم يقل لها تماماً كل ما مرّ بخلده خلال تلك الأيام. هي أيضاً، قد تكون قد احتفظت بأشياء صغيرة في سرّها. كان هذا دون أهمية أيضاً. لقد استعادا بعضهما من جديد. سوف يطرح الأسئلة وهي ستجيب.

- لماذا شعرت بأنك عجوز؟

....

في باريس، كانت تألف وجوهاً كثيرة، لكنهم لا يعنون لها شيئاً. الأشجار في قمة فتنتها، الحمائم تهدل في سواقي حبوب الطلع الزاغب والراكد فوق الأرصفة. كانت النديفات البيضاء تتطاير حولها، وبعد ظهيرة ذلك اليوم في المكتبة، عندما كانت تتطاير هي بنفس الطريقة ، قالت وداعاً لجسدها.

* * *

كانت تنبعث من الطريق رائحة الخضرة المنعشة وتنجرف فوق نهر موسكوفا تشكيلة من جذوع الأشجار، بدأت مغامرة الاكتشاف تثير حماسه وتخيفه. أن ينجح أو أن يصبح شخصاً مهماً، لم يبال بذلك قط. لو لم تنذر أمه نفسها بتصميم كي يتابع دراسته لاكتفى حقيقة بأصل والديه: معلمان تحت شمس بروفانس. كان يخيل إليه بأن حقيقة وجوده ونفسه لا تنتمي إليه. إنها متناثرة بشكل غامض عبر الأرض كلها، ولمعرفتها كان يجب مساءلة الأزمنة والأماكن، لهذا السبب كان يحب التاريخ والرحلات. لقد كانت مقاربة بلد مجهول طافح بوفرته الحية وعيش كل ما يمكنه أن يعرف عنه، كان ذلك يشعره بالدوار.

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339

